

دراسة تحليلية صادرة عن مركز بروكنجز الدوحة

رقم 11، يوليو 2014

ما وراء الطائفية:

الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط

غريغوري غوس

لمحة عن بروكنجز

معهد بروكنجز هو مؤسسة غير ربحية. يهدف المعهد إلى إجراء أبحاث وتحليلات على أعلى مستوى من الجودة لتقديم توصيات عملية ومبتكرة لصانعي السياسات والعامة. تقع مسؤولية التوصيات والاستنتاجات في منشورات بروكنجز على المؤلفين وحدهم. ولا تعكس وجهة نظر المعهد ولا العاملين فيه بأي شكل من الأشكال.

معهد بروكنجز
1775 طريق ماساشوستس، شمال غرب
واشنطن العاصمة، 20036 الولايات المتحدة
www.brookings.edu

مركز بروكنجز الدوحة
الساحة 43، بناية 63، الخليج الغربي، الدوحة، قطر
http://www.brookings.edu/doha

جدول المحتويات

الملخص التنفيذي[1]

لعلّ أفضل صورة توضّح السياسات الدولية في الشرق الأوسط هي حرب باردة تلعب فيها إيران والمملكة العربية السعودية أدواراً رئيسية. فهذان الفاعلان الرئيسيان لا يتواجهان عسكريّاً، بل يتسابقان على النفوذ في الأنظمة السياسية الداخلية في الدول الضعيفة في المنطقة. وهذا الواقع أشبه بصراع على إدارة السياسات المحلية في الشرق الأوسط أكثر منه مجرد سباق عسكري. وتُعتبر القوة العسكرية والسياسية لأطراف النزاعات الأهلية ومساهمة الأطراف الخارجية في هذه القوة أكثر أهمية من توازن القوى العسكري بين الرياض وطهران.

وتتشارك هذه الحرب الباردة "الجديدة" في الشرق الأوسط أوجه شبه هيكلية هامة مع الصراعات التي حصلت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، والتي سماها مالكوم كر "الحرب الباردة العربية". وتم قياس قوّة الأطراف الرئيسية في الحرب الباردة العربية بقدرتها على التأثير على الصراعات السياسية في الدول المجاورة، حيث واجهت الأنظمة الضعيفة صعوبة في السيطرة على مجتمعاتها وسعى اللاعبون المحليون وراء تحالفات إقليمية ضد خصومهم المحليين. وأدى اللاعبون غير الدوليين دوراً بارزاً في الأزمة. أما الكتل المتنافسة نفسها، فلم تكن متحدة دائماً، نتيجة التحالفات التكتيكية التي تجاوزت ما بدا وكأنه خطوط النزاع. وشكّلت القوى العظمى عاملاً مشاركاً مهمّاً، لكنها لم تكن محرّك الأحداث. أضف إلى أن "الصراع على سوريا" كان عنصراً رئيسيّاً في الحرب العربية الباردة. وتتوفر كل واحدة من هذه الخصائص في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط.

تتضمن المواجهة الحالية عنصراً طائفيّاً بارزاً، لكن لا يمكن تحديده على أنه مجرد نزاع "بين السنّة والشيعة". فقد يؤدي وضع مثل هذا الإطار إلى تشويش التركيز التحليلي وتبسيط الديناميكيات الإقليمية أكثر مما يجب والتضليل في فهم دوافع إيران والمملكة العربية السعودية. فالرياض وطهران تلعبان لعبة توازن القوى وتستخدمان الطائفية في هذه اللعبة، لكن كلتاهما تجاوزتا خط الطائفية الأحمر في السعي وراء التحالفات الإقليمية. وأدى ضعف الدول العربية، أكثر من الطائفية أو صعود الأيديولوجيات الإسلامية، إلى فتح ساحات المعركة في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. في الواقع، إنّ حالة ضعف الدولة وفشلها، والتي تظهر في لبنان مروراً بسوريا ووصولاً إلى العراق، تفسّر استشراء الطائفية مؤخراً. وبما أنه من الصعب إعادة بناء أنظمة سياسية مستقرة في هذه الدول ودول ضعيفة أخرى، من المحتمل أن تمتد الحرب الباردة الجديدة بقدر امتداد الحرب الباردة العربية في السابق.

حين انطلق الربيع العربي، كانت إيران في موقع الرابح في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. وكان السعوديون على خط الدفاع وبدا الربيع العربي، لاسيما مع سقوط نظام مبارك، انتكاسة أخرى لجهود مجابهة النفوذ الإيراني. لهذا السبب باتت سوريا محورية بالنسبة للسعودية. وفي بداية العام ٢١٠٢، كانت الرياض "منغمسة كليّاً" في الثورة. وستحدد نهاية الأزمة السورية بشكل كبير مفهوم الشرق الأوسط لمن "انتصر" بهذه الجولة من الصراع على النفوذ الإقليمي.

لا تكون محاور النزاع في الحروب الباردة مجرد ثنائية، والأمر سيان بالنسبة للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. فالسعوديون والإخوان المسلمون وحلفاؤهم الإقليميون، كحكومة حزب العدالة والتنمية في تركيا، والجهاديون السلفيون في تنظيم القاعدة والخلايا التابعة لها، وحلفاؤهم الأيديولوجيون، كداعش والمجموعات السُنية الأخرى، كلها سجينة صراع حول ماهية الدور السياسي المناسب الذي يجب على الإسلام أن يضطلع به في العالم السُني. تمحورت الثورات العربية في العام 2011 بشكل رئيسي حول أساس الحكم المشروع في العالم العربي. وكان هذا المزيج من الديمقراطية والسياسات الإسلامية، المتمثل بالفوز الانتخابي للإخوان المسلمين في مصر وحزب النهضة في تونس، غير مريح بالنسبة للقيادة السعودية. فالتوتر في العلاقات مع الإخوان المسلمين لم يبدأ مع الربيع العربي لكن تداعيات هذا الأخير كشفت النقاب عن النفور بين الطرفين. ويمكن ربط عدم قدرة تركيا والمملكة العربية السعودية على تشكيل محور قوي عموماً بنزاع إسلامي بين السنة حول النظام السياسي ارتباطاً جزئيّاً. وحتى بين الكتلة السلفية هناك انقسامات حادة.

[1] كتبت النسخة الأصلية لهذا البحث باللغة الإنجليزية وهذه ترجمة للنسخة الإنجليزية.

أما الجانب الأخير من الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط فهو تناقض القوى. ولا تشكّل القوة العسكرية لدولة ما عاملاً مفيداً بالضرورة في هذه اللعبة. ويكمن مفتاح النجاح في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط في أن تتمكن قوة إقليمية من دعم العملاء غير الدوليين والحلفاء بفعالية في معاركهم السياسية الداخلية في الدول الضعيفة في العالم العربي. وتتطلب الرعاية الفعالة للحلفاء روابط أيديولوجية وسياسية تجعل العملاء المحتملين منفتحين لعلاقة مع الراعي. لهذا السبب بالذات لم تتمكن إسرائيل وتركيا من لعب دور فعّال جدّاً في الحرب الباردة، فيما نفذت قطر نفوذاً أكبر من حجمها.

لا يسع الولايات المتحدة الكثير لمعالجة ضعف المؤسسات الحاكمة في عدد من الدول العربية التي تسببت بتركيبة النزاعات في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. لذا، عليها أن تعتمد مقاربة متواضعة وأن تتذكر بأن هذه الحرب ليست حرب الولايات المتحدة. والجدير بالذكر هو أن هذه النزاعات لم تعِق المصالح الأمريكية في المنطقة إلى حد كبير. ويجدر بالمبدأ التوجيهي للرد الأمريكي أن يكون تفضيل النظام على الفوضى، وبالتالي دعم الدول التي توفر حكماً فعّالاً حتى حين لا يستطيع هذا الحكم تحقيق مستويات الديمقراطية وحقوق الإنسان المفضلة. ويعني ذلك، على سبيل التعداد لا الحصر: 1) استكشاف كافة مجالات علاقة جديدة مع حكومة روحاني في إيران، 2) ضمان الحد من زخم الدولة الإسلامية قبل الضغط على نوري المالكي ليحكم بشكل شامل أكثر، 3) الاستمرار بالتعاون مع الحكومة العسكرية الناشئة في مصر، 4) ودعم الحلفاء التقليديين مثل الأردن والمملكة العربية السعودية ودول الخليج. لا شك في أن هذه السياسات "متناقضة" حين يُنظر إليها من عدسة الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط، لكن على الولايات المتحدة أن تركّز على مصالحها الإقليمية الأساسية فيما تحددها وليس كما تراها القوى الإقليمية. ويشكّل تركز السياسة الأمريكية على الدول التي تحكم فعليّاً، والعمل المتعدد الأطراف، وتذكر أن المصالح الأمريكية غير ملتزمة بشكل مباشر في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط كالأطراف المحلية، منفذاً للمنطقة من الحرب الباردة.

المقدمة

إنّ أفضل إطار لفهم السياسة الدولية المعقدة والعنيفة في الشرق الأوسط يكون من خلال النظر إليها كحرب باردة بين عدد من اللاعبين الإقليميين، سواء أكانوا جهات حكومية أو غير حكومية، حيث تؤدي كل من إيران والسعودية الأدوار القيادية. إنها حربٌ باردةٌ لأن هاتين الجهتين الفاعلتين الرئيسيتين ليستا بمواجهة عسكرية وعلى الارجح لن تتواجها عسكرياً. في الواقع، إنّ سباقهما على النفوذ يستنفد الأنظمة السياسية الداخلية للدول الضعيفة في المنطقة. هذا نزاعٌ على وجهة السياسة الداخلية في الشرق الأوسط أكثر منه مواجهة عسكرية بحتة. إنّ قوة أطراف الحروب الباردة العسكرية والسياسية، بالإضافة إلى مساهمات الأطراف الخارجية لتلك القوة، هي أكثر أهمية من التوازن العسكري بين الرياض وطهران. يسبق هذا الصراع الثورات العربية التي اندلعت في العام 2011 ، إلا أن تلك الاضطرابات الإقليمية العميقة فتحت ساحات جديدة تجري فيها الحرب الباردة في الشرق الأوسط. هناك أيضاً محاور مهمة في الصراع تقع خارج السباق السعودي-الإيراني الرئيسي على النفوذ. تجد المملكة العربية السعودية نفسها أيضاً في منافسة مع الإخوان المسلمين (وإلى حد ما قطر، باعتبارها دولة راعية للإخوان) على توجّه السياسة الداخلية في الدول المسلمة السنية في العالم العربي.

إنها حربٌ باردةٌ "جديدة" في الشرق الأوسط لأنه ثمة تشابهات هيكلية مهمة بينها وبين الصراعات الإقليمية في المنطقة التي نشبت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، والتي أطلق عليها الراحل مالكولم كير اسم "الحرب العربية الباردة".[2] في ذلك الوقت، استخدم جمال عبد الناصر التكنولوجيا الجديدة حينها، الراديو الترانزستور، لحشد دعم قومي عربي ضد الأنظمة الحاكمة في سوريا، والعراق، والأردن، والمملكة العربية السعودية، وغيرها. استعد عبد الناصر للقتال ضد الملوك "الرجعيين" في المملكة العربية السعودية والأردن، إلا أنه تشابك أيضاً مع قوميين عرب "تقدميين" على غرار عبد الكريم قاسم في العراق وحزب البعث في سوريا. لم تكن قوة الجيش المصري وراء نفوذ عبد الناصر. إذ إنه وفي المرة الوحيدة التي نشر فيها قواته العسكرية من أجل نشر نفوذه في العالم العربي، وتحديداً في اليمن، كانت النتائج كارثية. كانت سياسة المجازفة العسكرية التي اعتمدها مع الإسرائيليين في العام 1967 أكثر ضرراً، وتسببت بإنهاء الدور القيادي الذي كان يتمتع به على المستوى الإقليمي. كانت قدرته على حشد الدعم عبر الحدود وفي السياسة الداخلية للدول العربية السبب في جعله قوة رائدة في السياسة العربية بين الفترة الممتدة بين منتصف خمسينيات وأواخر ستينيات القرن الماضي.

تتجاوز الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط حدود العالم العربي.[3] إنّ إيران هي البطل الرئيسي. وقد حاولت تركيا أن تقوم بدور إقليمي أكبر. إلا أنها ليست معركة أيديولوجية بين "التقدميين" و"الرجعيين". إنّ حدود الاختلاف هي أقل أيديولوجية وترتكز على أساس الهوية بشكل أكبر. إلا أن أوجه التشابه لأمر لافت. تم قياس قوة اللاعبين الرئيسيين في الحرب العربية الباردة في قدرتهم على التأثير على الصراعات السياسية الداخلية في الدول المجاورة، حيث كانت الأنظمة الضعيفة تجد صعوبةً في السيطرة على مجتمعاتها و فضّل اللاعبون المحليون الحلفاء الإقليميين عن المعارضين في الداخل. وكان للجهات الفاعلة غير الحكومية دورٌ رئيسي. لم تكن الفرق المتنافسة في ما بينها متحدة دائماً، في ظل

[2] مالكولم كير، The Arab Cold War: Gamal ʻAbd al-Nasir and His Rivals, 1958-1970، الطبعة الثالثة (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1971).

[3] أكد عدد من المحللين أنّ الطريقة الفضلى لفهم الاضطرابات الحالية هي باعتبارها تجري في سياق عربي وليس شرق أوسطي، وذلك لأن العنصر الأساسي للاضطرابات الإقليمية هو القدرة على تحديد ما هو شرعي ضمن سياق الهوية السياسية العربية. راجع بشكل خاص مورتن فالبورن وأندريه بانك، "The New Arab Cold War: Rediscovering the Arab Dimension of Middle East Regional Politics"، ريفيو أوف انترناشونال ستاديز 38، العدد 1 (يناير 2012)، 3-24؛ كورتس ريان، "The New Arab Cold War and the Struggle for Syria"، ميدل إيست ريبورت 42، العدد 262 (ربيع 2012)، <http://www.merip.org/mer/mer262/new-arab-cold-war-struggle-syria>؛ نبيل خوري، "The Arab Cold War Revisited: The Regional Impact of the Arab Uprising"، ميدل إيست بوليسي 20، العدد 2 (صيف 2013)، 73-87.

وجـود تحالفـات تكتيكيـة تتشـابك مع مـا كان يبـدو كخطوط الـصراع. كانـت إسرائيـل تشـاهد مـا يحـدث ولم تكـن طرفـاً فيـه. وكانـت للقـوى العظمـى مشـاركة مهمـة، إلا أنهـا لم تكن تديـر الأحـداث. وكل واحـدة مـن هـذه الخصائـص موجودة في الحـرب البـاردة الجديدة في الشرق الأوسـط.[4] ولعبـت المواجهة الحاليـة دوراً رئيسـياً في الـصراع على السـلطة في سـوريا، والذي ورّط جميـع اللاعبـين الإقليميـين، كـما كان الحـال في السـنوات الأولى مـن الحـرب العربيـة البـاردة.[5]

ثمـة عنـصر مهـمّ للغايـة في هـذه الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط، ألا وهـو الطائفيـة. إلا أنـه لا يمكـن فهمهـا ببسـاطة عـلى أنهـا معركـة "بـين السـنة والشـيعة". إن هـذه الحـرب مـا هـي إلا لعبـة تـوازن القـوى ، لكـن لم يلعـب أي طـرف فيهـا عـلى أسـاس كيانـات حكوميـة محكمـة تتطابـق قوتهـا العسـكرية وتشـتبك أحيانـاً في سـاحة المعركـة. لا يمكـن فهـم هـذه الحرب إلا إذا فهمنا الروابط بـين الصراعات المحلية، والصـلات عـبر الحـدود الوطنيـة، وطموحات الـدول الإقليمية.[6]

تدفـع الصراعـات الداخليـة عـلى السـلطة الجهـات المحليـة الفاعلـة للبحـث عـن حلفـاء إقليميـين يمكنهم تزويدهـم بالمال، والسـلاح، والغطـاء الأيديولوجـي، والدعـم الدبلومـاسي. تبحث هـذه الجهـات عـن حلفـاء إقليميـين يشـاركونها، بطريقـة أو بأخـرى، مواقفهـا السياسـية والأيديولوجيـة، وتُشـعرها ببعـض القرابـة لأسـباب أيديولوجيـة أو عـلى أسـاس الهويـة. تحتـاج القـوى الإقليميـة إلى هـذه الصـلات المتعلّقـة بالأيديولوجيـا أو الهويـة لتوطيـد علاقاتهـا مـع حلفائها المحليين. مما لا شـكّ فيه أنّ توفـير الدعـم المـالي للحلفـاء غايـة في الأهميـة، إلا أنـه ليس كافيـا للحفـاظ عـلى النفـوذ. وبالتـالي، إنّ الـدول التـي لديهـا الإمكانات العسـكرية والماديـة للهيمنة الإقليميـة ولكنها تفتقر لروابـط الأيديولوجيـا والهويـة العـابرة للحـدود، مثـل إسرائيل، يتـم عرقلتهـا بشـدة في قدرتهـا عـلى أن يكـون لهـا تأثـير عـلى الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط.

في حـين اعتُـبِرت هزيمـة عبـد النـاصر في العـام 1967 نهايـة لمكانتـه الكبـيرة في العـالم العـربي، جـاءت النهايـة الحقيقيـة للحـرب العربيـة البـاردة مـع ترسـيخ كيانـات الـدول العربيـة. بَنَـت كل مـن سـوريا، والعـراق، والأردن، وليبيـا، والمملكـة العربيـة السـعودية، ودول الخليـج أنظمـة حاكمـة قمعيـة، ووحشـية في بعـض الأحيـان، إلا أنهـا كانـت فعّالـة في السـيطرة عـلى مجتمعاتهـا في النهايـة. تزامـن تراجع القـوة الإيديولوجية للقوميـة العربيـة العابـرة للحـدود مـع وقـت أصبحـت فيـه سياسـات بعـض الدول العربيـة أصعب أن يتـم اختراقها. ظلت دول منعزلـة ومهمـة، مثـل لبنـان واليمـن، ضعيفـة وعرضـة للتدخـل الخارجـي خـلال فـترة الوحـدة العربيـة الممتـدة بـين سـبعينات وثمانينيـات القـرن المـاضي، ولكنهـم كانـوا يقاومـون توجهـاً إقليميـاً. إنّ العديـد مـن الـدول العربية تعـاني الآن من ضعـف تلـك المشـاريع لبنـاء الدولـة، إن لم يكـن انهيارهـا. إنّ هـذا الإضعـاف للدولة، وليس الطائفية أو بـروز الأيديولوجيات الإسـلامية، هـو الـذي خلـق سـاحات معـارك الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط. ونظـراً لمـدى صعوبة إعـادة بناء أنظمـة سياسـية مسـتقرة في هـذه الـدول، مـن المحتمـل أن يطـول أمـد الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط كـما طـال أمـد الحـرب العربيـة البـاردة.

[4] لحجة مماثلة، راجع مارك لينش، "The Arab Cold War Revisited: The Regional Impact of the Arab Uprising" (نيويورك: بابليك أفيرز، 2012)، الفصل 2.

[5] باتريك سيل، "The Struggle for Syria: A Study of Post-war Arab Politics، 1945-1958" (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، 1965).

[6] يصل باسل صلوخ إلى الاستنتاج نفسه في "The Arab Uprisings and the Geopolitics of the Middle East"، ذا انترناشونال سبيكتايتر 48، العدد 2 (يونيو 3102)، 23-64.

هل هي حربٌ أهلية طائفية؟

يتطلّب فهم ديناميكيات الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط دراسة بعض الأطر البديلة التي تم طرحها لشرح المرحلة الحالية للسياسات الإقليمية الدولية. إنّ الإطار الأكثر شيوعاً هو طائفي – أي أنّ الصراع على السلطة في الشرق الأوسط اليوم، هو في الأساس، منافسة بين السنة والشيعة. وبينما شدّد مراقبون دقيقون أنه ثمّة عوامل أخرى، إلا أنّ اختزال هذه المنافسة، لتصبح "منافسة بين السنة والشيعة"، سيطر على وسائل الإعلام وحتى على التحليلات السياسة.[7] ومن السهل أن يفهم المرء السبب وراء ذلك بمجرّد مراقبة عمليات القتل في سوريا، والعراق، ولبنان. إنّ الطائفية هي عنصراً رئيسياً في الصراعات الداخلية في هذه البلدان، وكذلك في اليمن والبحرين. تقوم وسائل الإعلام الإقليمية، بدءاً من محطة تلفزيون المنار التابعة لحزب الله مروراً بالمواقع الجهادية السنية ووصولاً إلى الصحف ومحطات التلفزيون السعودية، بإبراز طبيعة هذه الصراعات الطائفية. لا أحد ينكر دورها الهام في فهم الصراعات الإقليمية الحالية.

إنّ التركيز حصرياً على أنّ الطائفية هي سبب الاضطرابات الإقليمية قد يشوه التركيز التحليلي. ثمّة افتراض غير معلن في حجة الطائفية وهو أن هذه الصراعات قديمة، وبالتالي، هي أبعد من الحلول السياسية، ولكنها ليست كذلك. لقد عاش المسلمون السنة والشيعة في وئام لسنوات عديدة في التاريخ الإسلامي أكثر من سنوات الخصام. لم تكن محاور الصراع في الشرق الأوسط في الماضي القريب بين السنة والشيعة. لم تقم الحرب العربية الباردة لأسباب طائفية، بل أيديولوجية. كانت الحرب الأهلية اللبنانية معركة طائفية، ولكن بين المسيحيين والمسلمين، وكان اللبنانيون السنة والشيعة إلى حد كبير في الصف نفسه. وفي حرب العراق ضد إيران في ثمانينيات القرن الماضي، قام أنصار العراق العرب بإظهار الحرب على أنها صراع بين القومية العربية والفارسية، في حين أكد المتعاطفون مع إيران (وأبرزهم النظام السوري) التزام الجمهورية الاسلامية بالقضية القومية العربية ضد إسرائيل. وقد أثارت خصائص السياسات الحالية، وليس "الأحقاد القديمة"، هذه الجولة الأخيرة من التوترات بين السنة والشيعة، وهذه الخصائص هي عرضة للتغيير.

بالإضافة إلى ذلك، تقوم عدسة الطائفية بالإفراط في تبسيط ديناميكيات الصراعات الإقليمية. يشكّل الأكراد جزءاً مهماً الأحداث السورية والعراقية، وهويتهم عرقية وقومية، وليست طائفية. يبدو أنّ الأكراد السنة والاكراد الشيعة هم أكراد بالدرجة الأولى، ويتصرفون على هذا الأساس سياسياً. إنّ المسيحيين في لبنان منقسمون. بعضهم يدعم تحالف 14 آذار الذي يقوده السُنة في حين يدعم بعضهم الآخر حزب الله في قوى 8 آذار. إنّ اختزال الأزمة لتكون بين السنة والشيعة قد جعل من العلويين – وهم فرع من الإسلام الشيعة يعتبرهم معظم علماء الدين الشيعة هرطقة – من "الطائفة الشيعية"، ببساطة من أجل أن يدخلوا في مخطط السنة مقابل الشيعة.[8] ما بدأ بتحالف سياسي بين نظام بعثي علماني في سوريا ونظام إسلامي ثوري في إيران، وعززه وجود أعداء مشتركين في إسرائيل والعراق في عهد صدام حسين، أخذ شكل تحالف طائفي بطريقة غير صحيحة.[9] يواجه رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي العديد من المشاكل في التعامل

[7] راجع، على سبيل المثال، جينيف عبدو، "The New Sectarianism: The Arab Uprisings and the Rebirth of the Sunni-Shi'a Divide"، ورقة تحليلية عدد 29، مركز سابان بمعهد بروكنجز، أبريل 2013، <http://www.brookings.edu/research/papers/2013/04/sunni-shia-divide-abdo>. يتميّز تقرير عبدو بالدقة، إلا أنه يعرض الطائفية على أنها الزاوية الأهم لفهم الصراعات الحالية في المنطقة. ومثال أوضح عن تركيز وسائل الإعلام هو مقال "Why Sunnis and Shiites are Fighting, Explained in Two Minutes"، ذا واشنطن بوست، 22 يناير 2014، <http://www.washingtonpost.com/blogs/worldviews/wp/2014/01/22/why-sunnis-and-shias-are-fighting-explained-in-two-minutes/>.

[8] مارتن كرامر، "Syria's Alawis and Shi'ism"، في Shi'ism, Resistance and Revolution (بولدر: مطبعة ويستفيو، 1987).

[9] لمعرفة المزيد حول الخلفية التاريخية للتحالف السوري-الإيراني، راجع أنوشيرافان إحتشامي وريموند هينيبوش، Syria and Iran: Middle Powers in a Penetrated System (لندن: روتلدج، 1997)؛ حسين آغا وأحمد خليدي، Syria and Iran: Rivalry and Cooperation (لندن: برنتر بابليشيرز فور ذا رويال إنستتيوت فور انترناشونال أفيرز، 1995).

مـع الحلفاء الشيعة في ائتلافه ومع الفصائل السـنية والكردية في البرلمـان العراقـي عـلى حد سـواء.[10] قـد تكون عبـارة [صراع] "بـين السـنة والشـيعة" مناسـبة لأحـد العناويـن الصحفيـة، إلا أنهـا غـير منصفـة لوصـف الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط نظـراً لتعقيداتها.

قـد يكـون أخطـر تبسـيط ناتـج عـن قبـول غـير دقيـق لإطـار [الصراع] "بين السـنة والشـيعة" هو سـوء فهـم دوافع الدولتين الرئيسـيتين في السـباق الإقليمـي عـلى النفـوذ. من السـهل جداً إظهـار المملكـة العربيـة السـعودية وإيـران كفاعلـين طائفيـين لديهـما دوافـع طائفيـة يعمـلان بهـا إقليميـاً. مـن الواضـح أنّ كليهـما لديـه نظـام طائفـي في الداخـل، ويقـدم كل منهـما حججـاً شرعيـة محـددة جـداً بـين السـنة الوهابيـة (في حالـة المملكـة العربيـة السـعودية) والشـيعة (في حالـة إيـران) لتعزيز حكمهـما. وبالتـالي، تلـك هـي خطـوة تحليليـة بسـيطة لنفترض أن الطائفيـة تدفـع سياسـاتها الخارجيـة، بيـد أنّ هـذه الخطـوة غـير صحيحـة. تلعـب الريـاض وطهـران لعبـة تـوازن القـوى. أنهـما تسـتخدمان الطائفيـة في تلـك اللعبـة، إلا أنّ دوافعهـما ليسـت نزاعـات دينيـة تعـود لقـرون مـن الزمـن ولكـن مجـرّد سـباق عـلى النفـوذ الإقليمـي. لا يؤكد أي من الطرفين علناً بأنه منخـرط في معركـة طائفيـة. في الواقـع، يلقـي كل طـرف اللـوم عـلى الطـرف الآخـر لإدخـال الانقسـام الطائفـي في السياسـة الإقليميـة. وبمـا أن أيـاً مـن الطرفـين لـن يعـترف بالدوافـع الطائفيـة، حتـى أثنـاء اسـتخدامهم الطائفيـة لبنـاء علاقات بين الـدول الراعيـة ووكلائهـا، فـإنّ ذلـك يعطـي بعض المـؤشرات لما يظنـون أن الجمهـور الإقليمـي يريـد ولا يريـد أن يسـمع.

"قد تكون عبارة [صراع] 'بين السنة والشيعة' مناسبة لأحد العناوين الصحفية، إلا أنها غير منصفة لوصف الحرب الباردة الجديدة نظراً لتعقيداتها."

لقـد تخطّـت كل مـن الريـاض وطهـران خـط الصـدع الطائفي في السـعي لإقامـة حلفـاء إقليميـين. ولهـذا الأمـر أهميـة كـبرى بالنسـبة للإيرانيـين بسـبب وجـود إطـار طائفي بحـث يضعهم في موقـف الأقليـة في معظـم البلـدان. فقـد قـام الإيرانيـون بتطويـر علاقـات وثيقـة مـع حركتـي حـماس والجهاد الإسـلامي مـن بـين المنظمات الفلسـطينية (رغـم أن العلاقات مـع الجهاد الإسـلامي قـد توتـرت بسـبب الحـرب الأهليـة السـورية)، ووضعـوا أنفسـهم في قيـادة "محـور المقاومـة" ضـد إسرائيل.[11] وتجمـع الإيرانيـون علاقـة عمـل جيـدة مـع بعـض المنظـمات الكرديـة في حكومـة إقليـم كردسـتان العـراق، وخاصـة الاتحاد الوطنـي الكردسـتاني. منذ بدايـة الثورة الإيرانيـة، قامت طهران علنـاً بالتقليـل مـن أهميـة الطبيعـة الشـيعية لنسـختها الخاصة بالسياسـات الإسـلامية الثوريـة، مـع التأكيـد عـلى الطبيعـة الإسـلامية لنموذجهـا، في حـين لا تـزال تحصـد أكـبر نجاحاتها في تطويـر حلفـاء وعمـلاء بـين الشـيعة العـرب.

أما بالنسـبة للسـعوديين، الذين يسـتخدمون موضـوع الطائفية في سـوريا ذات الأغلبية السـنية، فلم تقتصر تحالفاتهم ببسـاطة عـلى السُـنّة، ولم يأخـذوا كل جماعـة سـنية حليفـاً لهـم. لقـد دعمـت الريـاض بقـوة القائمـة العراقيـة بزعامـة إيـاد عـلاوي في الانتخابـات العراقيـة لعـام 2005 و 2010.[12] يعتـبر عـلاوي سـياسي علـماني بـكل معنـى الكلمـة، ولكـن شـيعي بالـولادة، وضـمّ ائتلافـه شريحـة عرقيـة وطائفيـة متنوعـة مـن الشـعب العراقـي. في حـين أن الائتـلاف حُسِـب لصالـح الأقليـة العربيـة السـنية، إلا إنـه لم يكـن حزبـاً سـنياً طائفيـاً. كانـت مثـل هـذه الأحـزاب موجـودة في العـراق، وليـس هنـاك أي دليـل على أنها تلقـت دعـماً مماثـلاً مـن المملكـة العربيـة السـعودية. أمـا في سـوريا، فقـد دعـم السـعوديون في الأصـل الجماعـة المتمـردة الأقـل طائفيـة، وهـي الجيـش السـوري الحـر، وغيرهـا مـن الجماعـات التـي بقيـت بعيدة عن جماعة الإخوان المسـلمين.[13]

---

[10] حارث حسن، "New Shia Politics and the Maliki-Sadr Competition in Iraq"، ميناسورس، Atlantic Council، 17 نوفمبر 2013، <http://www.atlanticcouncil.org/blogs/menasource/new-shia-politics-and-the-maliki-sadr-competition-in-iraq>.

[11] راي تاكيه، Guardians of the Revolution: Iran and the World in the Age of the Ayatollahs (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفرد، 2009)، 61-69، 171-73.

[12] مايكل غوردن، Meddling Neighbors Undercut Iraqi Stability، ذا نيويورك تايمز، 5 ديسمبر 2010؛ توبي دودج، Iraq: From War to a New Authoritarianism (لندن: انترناشونال إنستيتيوت فور ستراتيجيك ستاديز، 2012)، 192.

[13] مارتن شولوف، أيوين ماكأسكيل، وجون دانسكي، "Saudi Arabia plans to fund Syria rebel army"، ذا غارديان، 22 يونيو، <www.guardian.co.uk/world/2012/jun/22/saudi-arabia-syria-rebel-army>؛ رولا خلف، " Arms Deliveries to Syrian Rebels Delayed"، ذا فاينشال تايمز، 11 يوليو 2012 ، <http://www.ft.com/intl/cms/s/0/36d84430-cb5f-11e1-b896-00144feabdc0.html#axzz2xlJMaFNy>؛ رانيا أبو زيد، "The Shadow War Behind Syria's Rebellion: Foreign Backers Jockey for Influence in Turkey"، تايم، 24 مايو 2013، <http://world.time.com/2013/05/24/the-shadow-war-behind-syrias-rebellion-foreign-backers-jockey-for-influence-in-turkey/>؛ آدم أنتوس، نور مالاس، ومارغيريت كوكر، "A Veteran Saudi Power Player Works to Build Support to Topple Assad"، وول ستريت جورنال، 25 أغسطس 2013، <http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424127887323423804579024452583045962>.

بعد أن وجد السعوديون أنّ الجيش السوري الحر لا يأتيهم بالنتائج المرجوة، حوّلوا بعضاً من دعمهم لجماعات مسلحة سلفية أكثر طائفية بشكلٍ علني، ودعموا تشكيل الجبهة الإسلامية في العام 2013، إلا أنهم رفضوا دعم جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام، المجموعتان المسلحتان السنيتان المرتبطتين علناً بتنظيم القاعدة.[14] لم تكن الطائفية أبداً الأساس الوحيد الذي استندت عليه المملكة العربية السعودية في تعاملها مع الحرب الأهلية السورية. وأخيراً وليس آخراً، لا يمكن تفسير العداء السعودي للإخوان المسلمين من خلال إطار طائفي بحت، وهو عنصراً مهماً في السياسات الإقليمية لمرحلة ما بعد الربيع العربي. لو كانت الطائفية تسيطر على صناعة السياسة السعودية، لكانت الرياض تعتبر الإخوان المسلمين حليفاً لها، إلا أن الحال ليس كذلك في مصر، العراق، أو سوريا.

[14] خالد يعقوب أويس، "Saudi Arabia Boosts Salafist Rivals to al-Qaeda in Syria"، رويترز، 1 أكتوبر 2013، <http://www.reuters.com/article/2013/10/01/us-syria-crisis-jihadists-insight-idUSBRE9900RO20131001>؛ يزيد صايغ، "Unifying Syria's Rebels: Saudi Arabia Joins the Fray"، Carnegie Endowment for International Peace – Middle East Center، ٨٢ أكتوبر ٣١٠٢، <http://carnegie-mec.org/2013/10/28/unifying-syria-s-rebels-saudi-arabia-joins-fray/greh>؛ بن جيلبرت، "Saudi Arabia Walks a Fine Line in Backing Syrian Rebellion"، الجزيرة أمريكا، 20 يناير 2014، <http://america.aljazeera.com/articles/2014/1/20/saudi-arabia-walksafinelinkin-backingsyriarebellion.html>.

الأسس المحلية للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط

بـدلاً مـن النظر إلى الحـرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسـط كظاهـرة تنازليـة [مـن الأعـلى إلى الأسـفل] تقودهـا دولتـان تحركهـما المنافسـة الطائفيـة، فـإن اعتبارهـا ظاهـرةً تصاعديـة أكـثر دقـة. يـترك ضعـف سـلطة الدولـة أو انهيارهـا فراغـاً سياسـياً محليـاً يفتـح المجـال أمـام الغربـاء للتدخـل. وبشـكلٍ عـام، ليـس عـلى الغرباء أن يُقحموا أنفسـهم في هـذه المجالات السياسـية المحليـة، فهـم يلبّـون دعـوة الفصائـل السياسـية المحليـة الطامعـة للسـيطرة عـلى الخصـوم المحليـن. إن الغايـة مـن خصومـة الحرب البـاردة بالنسـبة لإيران والمملكـة العربية السـعودية وغيرهـا مـن القـوى الإقليميـة لا تتجـلى في هزيمـة الخصـوم الإقليميـين عسـكرياً في سـاحة المعركة، إنمـا في الترويج لـثروات عملائهـا في هـذه الدولـة الضعيفة التي تشـهد نزاعات وبالتـالي الفـوز بنفـوذ إقليمـي.

مـن الـضروري أن نميـز بـيّن ضعـف الدولـة في المجال السـياسي المحلي والضعـف في التصنيفـات الدوليـة للقـوة. فالدولـة الضعيفـة عـلى المسـتوى الداخـلي هـي دولـة ليـس لحكومتهـا المركزيـة إلا سـيطرة بسـيطة عـلى شـعبها. فلا يمكنهـا أن تفرض أمرهـا القضـائي في أجـزاء مهمة مـن أراضيها. لا يمكـن لمحاكمها أن تفـرض أحكامهـا، ولا يمكنهـا أن تقـدم الخدمـات الأساسـية للمواطنـين، ولا تحكـم السـيطرة عـلى حدودهـا. تتمتـع مجموعـات محليـة فرعيـة بالقـوة العسـكرية لتحـدي قـدرة الدولـة الضعيفـة عـلى السـيطرة عـلى أراضيهـا، في شـكلٍ تعجز فيـه الدولـة الضعيفـة عـن اجتيـاز "اختبـار ويـبر" للسـيادة – احتـكار الاسـتخدام الشرعـي للقـوة ضمـن حدودهـا. في الدول الضعيفـة عـلى المسـتوى الداخـلي، دائمـاً مـا يُظهـر المواطنـون ولاءً سياسـياً يحـلّ محـل ولاءهـم للدولـة بحـد ذاتهـا، سـواء كان هـذا الـولاء إقليميـاً، طائفيـاً، فرعيـاً محليـاً، أم متعـدد الجنسـيات.[15] تُعتـبر الكويـت دولـةً ضعيفـة بالنظـر إلى قوتهـا الدوليـة؛ فهـي غير قـادرة على الدفاع عن نفسـها عسـكرياً ضد أي دولـة مجـاورة لهـا. إلا أنهـا دولـة قويـة مـن حيـث العلاقة بـين النظـام والمجتمع. تسـيطر الحكومة الكويتيـة بفعالية على أراضيهـا وتحـرس حدودها. يُظهـر المواطنون الكويتيون بشـكل عـام ولاءً للدولـة الكويتيـة؛ ولا تشـوب هويتهـم ككويتيـين أي انتـماءات قبليـة أو طائفيـة أو قوميـة عربيـة. لهـذه الهويـات الأخـرى أهميـة كـبرى لفهـم كيـف يتـصرف الكويتيـون عـلى المسـتوى السـياسي، إلا أنهـا لا تتخطى الهويـة الكويتية بوصفها الـولاء السـياسي الأسـاسي للمواطنـين. يسـبق العـراق دولـة الكويـت بأشـواط مـن حيـث القـوة الدوليـة، بسـبب عـدد سـكانه واقتصـاده وقوتـه العسـكرية، إلا أنـه أصبـح اليوم من بـين الـدول الضعيفـة من حيـث العلاقة بـين النظـام والمجتمع.

يحـدّد عـدد الـدول الضعيفـة عـلى المسـتوى الداخـلي في فـترةٍ معينـة مـدى خطـورة أي حـرب بـاردة في المنطقـة. خـلال الحـرب العربية البـاردة التي نشـبت في خمسـينيات وسـتينيات القـرن المـاضي، قليلـة كانـت الـدول العربية التـي كان بالإمكان اعتبارهـا دولاً قويـة مـن حيـث علاقة النظـام بالمجتمـع. واجه الـولاء للدولـة تحديـاً تمثـل في الهويـات الوطنيـة الفرعية وتلك التـي تتخطـى الحـدود الوطنيـة، وبشـكل خـاص في القوميـة العربيـة. عانـت الـدول ضعفـاً مؤسسـاتياً مـن دون الأجهـزة البيروقراطيـة الواسـعة والمحبطـة التـي أنشـأتها للسـيطرة على المجتمعـات والاقتصـاد ومراقبتهـا وتوجيهـا. كان عبـد النـاصر قـادراً عـلى تعبئـة الدعـم في عـددٍ مـن هـذه الدول، وعـلى هزّ حكوماتهـا، وحتـى المسـاعدة في إسـقاط الأنظمـة في سـوريا والعـراق واليمـن.

خلافـاً لذلـك، عقـب الثورة الإيرانية، حين بلغ الإسـلام السـياسي الثوري ذروته وكان نظام الجمهورية الإسـلامية الجديد يشـجع بنشـاط عـلى "تصديـر" الثـورة، لم تسـقط أي حكومـة عربيـة، رغـم أن جميعهـا واجهـت العديـد مـن الأزمـات والاضطرابات

[15] هناك دراسات موسّعة حول قوة الدول وضعفها من حيث قدرتها على السيطرة على مجتمعاتها والمواضيع المتعلّقة ببناء الدولة. راجع جو ميغدال، Strong Societies and Weak States (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، 1988)؛ محمد أيوب: The Third World Security Predicament: State-Making, Regional Conflict and the International System (بودلر: لين رينر، 1995)؛ سوزان رايس وستوارت باتريك، "Index of State Weakness in the Developing World"، معهد بروكنجز، 2008، http://www.brookings.edu/~/media/research/files/reports/2008/2/weak%20states%20index/02_weak_states_index.pdf.

الخطيرة. لم يكن السبب في ذلك يُعزى إلى أن صدى رسالة الثورة الإسلامية لم يتردد في المنطقة. إنّ نجاح الجماعات السياسية الإسلامية المتنوعة منذ ذلك الوقت يكذّب هذه المزاعم. في الحقيقة، إنّ قدرة الأنظمة العربية على التخفيف من الآثار المترتبة عن الثورة الإسلامية في إيران تنبع من حقيقة أنها بنت نفسها ضمن كيانات مؤسساتية أقوى بدت أكثر قدرة على استيعاب شعوبها ومراقبتها، وقمعها. لا شك أن الوفرة النفطية شكلت عاملاً مساعداً، إلا أنه حتى الدول غير النفطية كسوريا والأردن تمكنت من تقوية قدرتها على السيطرة على المجتمع. ولم يتم ذلك بطريقة سلمية أو بإيجابية مطلقة بالنسبة للمواطنين – فبناء الدولة لم يكن يوماً كذلك. تضمّنت تلك العملية صراعاً أهلياً وحتى حرباً أهليةً في بعض الأماكن، وتطور البوليس السري وما يرافق ذلك من فقدان الحرية السياسية، والفساد والكساد الاقتصادي الذي ينتج عن دولة متغطرسة. مع ذلك، فقد سمحت للأنظمة العربية بتخطي صدمة الثورة الإيرانية.

إنّ نجاح إيران الأساسي الكبير في "تصدير" ثورته تمثل في لبنان مع تأسيس حزب الله عقب الاجتياح الإسرائيلي في العام 1982. شكّل لبنان استثناءً لعملية بناء الدولة التي امتصت الدول العربية المجاورة في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. اتسم تاريخ لبنان السياسي بالتدخل الخارجي، حيث تدخلت إسرائيل وسوريا عسكرياً، بالأخص خلال الحرب الأهلية اللبنانية بين العامين 1975 و 1990، واحتلّتا مناطق مهمة من الأراضي اللبنانية لفترة من الزمن. تدخّلت قوى أخرى بشكلٍ غير مباشر من خلال دعم الفصائل اللبنانية المختلفة. وفي هذا السياق، حققت إيران النجاح الأبرز من خلال المساعدة في جعل حليفها حزب الله أحد أهم اللاعبين في البلاد، إلا أن المملكة العربية السعودية وحتى العراق، إبان حكم صدام حسين، قدمتا الدعم لعملائهما في السياسة اللبنانية. وعمد كلّ فريق لبناني إلى البحث عن قوى أجنبية للحصول على الدعم المالي والعسكري والدبلوماسي. نظراً للقاعدة الطائفية الواضحة في النظام السياسي اللبناني، بنيت تلك الفصائل على أساس طائفي.

يُعتبر اليمن مثالاً آخراً للدولة العربية التي لم تطور يوماً سلطة مركزية قوية. بعد توحيد الشمال والجنوب، امتد حكم علي عبدالله صالح من الشمال إلى الجنوب وهو أمر أدى إلى ضغوط مركزية لا تزال تؤثر على السياسة اليمنية حتى يومنا هذا. في هذه الحالة، إنها المملكة العربية السعودية التي هي أكثر من طور علاقات بشكلٍ فعال مع شيوخ القبائل، والقادة الإسلاميين، والفصائل المحلية، والسياسيين الطموحين.[16]

طالما بقيت مجالات ضعف الدولة قليلة وهامشية بعض الشيء بالنسبة إلى المراكز الاستراتيجية للسياسات الإقليمية ، هيمنت العلاقات بين الدول على السياسات الدولية في الشرق الأوسط. منذ سبعينيات القرن الماضي وحتى أوائل القرن الواحد والعشرين، قادت الحروب وعمليات السلام بين الدول الديناميكيات الإقليمية. أدت حرب أكتوبر 1973 إلى سلام مصري–إسرائيلي، تلاه الاجتياح الإسرائيلي للبنان، الأمر الذي أخرج لاعباً عربياً أساسياً وغير دولي، منظمة التحرير الفلسطينية، وأوصلته إلى تونس. ونشبت حربٌ بين العراق وإيران والتي دامت ثمانية أعوام، تلاها الاجتياح العراقي للكويت وحرب الخليج في الفترة الممتدة بين العامين 1990 و 1991 والتي أعادت للكويت سيادتها. وتلت هذه الحرب جولة جديدة من المفاوضات العربية–الإسرائيلية، أدت إلى توقيع معاهدة السلام الأردنية–الإسرائيلية في العام 1994، وإلى أهم المفاوضات في التاريخ ونعني بها المفاوضات السورية-الإسرائيلية والمفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في أواخر تسعينيات القرن الماضي. وتعيّن على تنظيم القاعدة، أحد أهم اللاعبين العرب غير الدوليين (أقله بالعودة إلى الماضي)، العثور على مركز له بعيداً عن العالم العربي، في أفغانستان، والذي خططت منه هجمات 11 سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة.

"الدولة الضعيفة على المستوى الداخلي هي دولة ليس لحكومتها المركزية إلا سيطرة بسيطة على شعبها"

وأحدث الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003 نقطة التحول في هذا النمط، إذ قلب عملية تقوية الدولة العربية التي بدأت في سبعينيات القرن الماضي. ضعفت قدرة الدولة العراقية بشدة بعد حرب الخليج، إلا أنّ الغزو الأمريكي كان الضربة القاضية. اختارت واشنطن إسقاط الأعمدة الأساسية الثلاثة التي تؤلف الدولة السلطوية – من خلال حظر حزب البعث الحاكم، وحلّ الجيش، وتطهير البيروقراطية من الكوادر ذات الخبرة والذين كانوا أعضاءً في الحزب – وذلك رغبةً منها في بذل جهود خاطئة لبناء دولةٍ جديدة.[17] جاء بعد ذلك انفتاح النظام السياسي العراقي أمام النفوذ السياسي الخارجي،

[16] للاطلاع على السياسات اليمنية المضطربة بعد الوحدة، راجع ستيفن داي، Regionalism and Rebellion in Yemen: A Troubled National Union (كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج).

[17] غريغوري غوس، The International Relations of the Persian Gulf (كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج، 2010)، 168 – 155.

لا سيما النفوذ القادم من إيران. أصبح العراق، الذي اعتُبر على مدى عقود لاعباً أساسياً في السياسة الإقليمية، كلبنان واليمن ساحة معارك في السياسات العربية. كان ذلك البداية الحقيقية للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط.

زاد انهيار الدولة العراقية من أهمية الطائفية في السياسات الإقليمية التصاعدية بشكلٍ كبير (من الأسفل إلى الأعلى). كانت الهويتان الطائفية والعرقية مهمة في السياسة العراقية منذ أيام الملكية الهاشمية، ولكن حين اكتسبت الدولة قوة، خفّت أهميتها بسبب بعض الهويات والولاءات الأخرى، بما في ذلك الدولة بحدّ ذاتها، وبقيت تحت مراقبة مؤسسات الدولة. دفع ضعف الدولة العراقية، بسبب عقوبات التسعينيات، صدام حسين إلى زيادة اعتماده على الطائفة السنية وعلى الولاء القبلي لدعم حكمه المتهالك.[18] ومع انهيار الدولة في العام 2003، أصبح للهويتين الطائفية والعرقية الكردية دورٍ أساسي في الصراع للحصول على السلطة. واتجهت الأحزاب الشيعية إلى إيران للحصول على الدعم، في حين تطلعت الأحزاب السنية إلى المملكة العربية السعودية طلباً للدعم.[19] وبهذا ترسّخت الطائفية كميزة للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط.

عندما انحدرت سوريا في نهاية المطاف إلى حرب أهلية خلال الثورات العربية التي قامت في العام 2011، زادت حدّة العنصر الطائفي في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. كانت الاحتجاجات التي ولّدت الأزمة السورية سلميّة، وكانت تدعو إلى الإصلاح السياسي على نطاق واسع. فقادت ردة الفعل العنيفة والمبالغ فيها لنظام بشار الأسد العنيفة على هذه الاحتجاجات البلاد إلى حرب أهلية. ومع زيادة حدة الصراع وانهيار سلطة الدولة السورية في أنحاء مختلفة من البلاد، فأصبح النظام أكثر اعتماداً على قاعدته الأساسية، والأقلية العلوية، والأقليات الدينية الأخرى الخائفة من التغيير. في المقابل، أصبحت المعارضة تتميز على نحو متزايد بالخطابات الطائفية السنية، كما أدّت المجموعات المسلّحة السنية دوراً متزايداً في الصراع.[20]

إنّ حالة ضعف الدولة وفشلها، والتي تظهر في لبنان مروراً بسوريا ووصولاً إلى العراق، تفسّر بروز الطائفية في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط.[21] دفع تراجع الدولة، بالإضافة إلى أعمال العنف لا سيما في سوريا والتي يمارسها أولئك الذين يسيطرون على الدولة، الناس في هذه البلدان إلى اللجوء إلى الهويات والجماعات الطائفية من أجل تأمين الحماية والمواد الأساسية التي لا ولن تستطيع الدولة أن تقدمها. بحثت هذه الجماعات عن حلفاء خارجيين للحصول على الدعم في الصراعات السياسية والعسكرية المحلية. وفي الوقت الذي كانت فيه الطائفية تحدد صراعات هذه المجموعات على نحو متزايد، كان من الطبيعي أن تتجه هذه الأخيرة نحو البلدان التي تشاركها الطائفة نفسها – إيران للشيعة، والمملكة العربية السعودية للسنة – للبحث عن هذا الدعم. سمح تراجع الدولة لإيران، والمملكة العربية السعودية، ودول إقليمية أخرى أن تؤدي دوراً متزايداً في الصراعات الأهلية في لبنان (لبعض الوقت)، والعراق (منذ العام 2003)، وسوريا (منذ العام 2011). هذا هو جوهر الديناميكية من أسفل إلى أعلى التي تقود الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. لم تكن السعودية وإيران وراء ضعف الدولة والهويات الطائفية في هذه البلدان. إلا أنّهما تستفيدان بالتأكيد لتحقيق مصالحهما الخاصة في لعبة توازن القوى التقليدية.

[18] فيبي مار، The Modern History of Iraq، النسخة الثانية، (بولدر، كولورادو: مطبعة ويستفيو، 2004)، الفصل العاشر.

[19] دودج، Iraq: War to Authoritarianism، الفصلان الأول والسادس.

[20] أميل حكيّم، Syria's Uprising and the Fracturing of the Levant (لندن: انترناشونال إنستتيوت فور ستراتيجيك ستاديز، 2013).

[21] دانيال بيمان، Sectarianism Afflicts the New Middle East، Survival 56، العدد 1 (فبراير/مارس 2014).

إيران والسعودية: منافسة على النفوذ

استبقت الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط الربيع العربي بنصف قرن على الأقل، إلا أن النفوذ الإيراني المتزايد في المنطقة يعود إلى فترة أبعد من ذلك بكثير. حرص النظام الثوري الإيراني على نشر نموذجه الثوري في العالم العربي، إلا أن الدول القوية نسبياً أثبطت عزيمته. وقد سبق وتحدثنا عن تأسيس حزب الله والذي لا يزال حليف إيران غير الدولي الأقوى. بشكلٍ مختلفٍ تماماً، أنشأت طهران تحالفاً قوياً مع سوريا البعثية، لم يقم هذا التحالف على قيم مشتركة – إذ لم يكن يُعقل أن يكون آية الله الخميني ميالاً إلى نظام حافظ الأسد العلماني والقومي العربي – إنما على أعداء مشتركين، أي اسرائيل وصدام حسين في العراق. ولكن عموماً، فشل حلم الخميني بنشر الثورة الإسلامية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وبدايةً في الشرق الأوسط.[22]

خسرت الدبلوماسية الإيرانية الكثير من اندفاعها الثوري بعد وفاة الخميني. واصلت طهران انتقاد الولايات المتحدة وإسرائيل استناداً إلى أسس أيديولوجية، ولكن منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي وحتى أوائل القرن الواحد والعشرين اعتمدت دبلوماسية أكثر طبيعية بين دولة ودولة. لم يتخلى عناصر النظام قط عن خطاب "تصدير الثورة" ولا عن الرغبة به، إلا أن إيران سعت إلى تحسين العلاقات مع دول مجلس التعاون الخليجي (عملية ساهم الجانبان في تسارعها نتيجة غزو صدام للكويت في العام 1990) ومع تركيا ومصر. في جزء منه، نتج ذلك عن محدودية فرص التقدم الأيديولوجي. فقد كان صدام لا يزال متمسكاً بالجزء الذي يسيطر عليه من العراق. وكان نظام طالبان في شرق إيران عدائياً جداً. وكانت دول الخليج التي تضم مجتمعات شيعية كبيرة قادرة على صدّ الجهود الرامية إلى تنفيذ اختراق سياسي من خلال بناء دولة يحركها النفط - تخدم المواطنين الشيعة وتطور الأجهزة الأمنية التي تراقب الشعب وتتحكم به بفعالية. كان الاعتدال الإيراني الإقليمي في جزء منه على الأقل ناتجاً عن الافتقار إلى فرص لنشر نفوذها.[23]

فرصٌ جديدة طرحت نفسها في أوائل القرن الواحد والعشرين. فتح الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق المعترك السياسي أمام اثنين من الدول المجاورة لإيران، تضم إحداهما أغلبية شيعية. تركت سياسة الولايات المتحدة فراغاً سياسياً في مكانين جديدين يمكن للنفوذ الإيراني اختراقهما. جلب انتخاب محمود أحمدي نجاد رئيساً للإيران في العام 2005 إلى السلطة مجموعة لطالما كانت متواجدة وملتزمة جداً بالخطاب الثوري الذي نادى به آية الله الخميني وبنشر النفوذ الإيراني ليصل إلى السياسات المحلية في دول أخرى. دفع هذا الطموح المتجدد والفرص الجديدة في العراق إيران إلى مراكز قوة جديدة في المشرق العربي. منذ أواسط السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، تمتعت إيران بنفوذ هام إن لم يكن رائداً في لبنان وسوريا والعراق.[24]

في الوقت الذي أصبحت فيه النتائج المترتبة على الغزو الأمريكي للعراق واضحة، ولا سيما زيادة النفوذ الإيراني في العراق، استنتجت المملكة العربية السعودية تدريجياً أنها يجب أن تأخذ زمام المبادرة في معادلة التوازن، إن لم يكن تخفيض، القوة الإيرانية في المشرق العربي. من غير المعهود أن تأخذ الرياض زمام المبادرة في الشؤون الخارجية الإقليمية، ولا سيما بطريقة هجومية. نظراً لضعف السعودية على المستوى العسكري، طالما فضّل السعوديون العمل وراء الكواليس وتجنّب تحديات مباشرة كي لا يؤدي ذلك إلى نشوب صراعات. بالكاد كانت العلاقات الدولية بين المملكة العربية السعودية وإيران خلال حكم كل من علي أكبر هاشمي رفسنجاني ومحمد خاتمي دافئة، إلا أنها لم تكن عدائية علناً على حد سواء. حتى بعد انتخاب الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد في عام 2005، الذي ابتعد عن الخطابات الأكثر تصالحية التي كان يلقيها الرؤساء الذي سبقوه، بذل السعوديون جهوداً قليلة للتوصل إلى نوع من التسوية الإقليمية المؤقتة مع طهران. بالإضافة إلى ذلك، عملت الدولتان معاً من أجل حل التوترات بين عملائها

[22] غوس، International Relations of the Persian Gulf، الفصلان 3 و5؛ تكية، Guardians of the Revolution، الفصول 11 و 9، 6، 5.

[23] المصدر عينه.

[24] المصدر عينه.

في لبنـان في أوائـل العـام 2007،[25] وفي أواخـر مـارس 2007، اسـتضاف السـعوديون أحمـدي نجـاد في الريـاض. ولكـن، في وقـتٍ مـا بـين 2005 و2010، ارتـأت الريـاض أنـه مـا مـن دولة عربيـة أخرى مسـتعدة أو قـادرة على أن تعـادل النفوذ الإيراني المتنامـي في المـشرق العـربي، وأنـه سـيكون عليهـا القيـام بهـذه المهمـة بنفسـها.

كانـت المشـكلة بالنسـبة للسـعوديين هـي أن الإيرانيـين حصلـوا عـلى الأفضـل في كلّ مـرة. في لبنـان، ألحقـت الريـاض الهزيمـة بإيـران في العـام 2005 مـع انسـحاب القوات السـورية وانتصـار قـوى 14 آذار في الانتخابـات النيابيـة التـي تلـت هـذا الانسـحاب. كانـت قـوى 14 آذار بقيـادة سـعد الحريـري، نجل رئيـس الـوزراء الراحـل رفيـق الحريـري المقرب من السـعودية. ولكـن، قبـل ذلـك بفـترة طويلـة، أثبـت حـزب الـله أنه القـوة الحقيقيـة على السـاحة السياسـية اللبنانيـة. وقـد أظهـر حزب الـله تجاهـلاً تاماً للحكومـة اللبنانيـة في إدارتـه المسـتقلة على صعيد السياسـة الخارجيـة والعسـكرية في خـلال حربـه القصـيرة التـي خاضهـا ضـد إسرائيـل في العـام 2006. في العام 2008، خـلال مواجهات مـع الحكومـة للسـيطرة عـلى سياسـة الأمـن المحليـة، سـيطر مقاتلـو حـزب الـله عـلى وسـط المدنية في بـيروت. ورغـم الفوز الثـاني الـذي أحرزتـه قـوى 14 آذار في الانتخابـات النيابية للعام 2009، عجـز حلفـاء السـعودية في لبنـان عن كبـح جماح حزب الـله. مـع بدايـة العـام 2011، خـسرت قـوى 14 آذار الأكثريـة النيابيـة مـع انضـمام بعـض أعضائهـا إلى حـزب الـله وحلفائـه للإطاحـة بسـعد الحريـري مـن رئاسـة الحكومـة.[26]

"من غير المعهود أن تأخذ الرياض زمام المبادرة في الشؤون الخارجية الإقليمية، ولا سيما بطريقة هجومية."

فشـل السـعوديون كذلك في الحدّ من النفوذ الإيراني في العراق. في الوقـت الـذي وحّـدت فيـه إيـران نفوذهـا مـع المجموعـات الشـيعية التـي أصبحـت قويـة حديثـاً، عجـزت السـعودية عن دعـم حلفائهـا الطبيعيـين في المجتمـع العربي السـني في العراق. كان عـدد مـن هـؤلاء الحلفـاء في خضـم تمـرّد قامـوا بـه ضـدّ الولايـات المتحـدة، التـي ضعفـت علاقتها مـع المملكـة العربية السـعودية بعـد أحـداث 11 سـبتمبر، وقـد أُرجِـع جـزء مـن ذلـك التمـرد إلى التيـار الجهـادي السـلفي نفسـه الـذي كان يحـاول تقويـض النظـام السـعودي. (تجـد الريـاض نفسـها في نفـس الوضـع في مـا يتعلـق بالمكاسـب التي حققتهـا داعش في صيـف العـام 2014). حـين ظهـرت مجالـس الصحـوة في العـام 2006، وجـد السـعوديون حليفـاً عراقيـاً يمكنهـم العمل معه – حليـف سـني معادي للنفـوذ الإيراني في العراق إنما يتعاون مع الولايـات المتحـدة، فـما كان من الريـاض إلا أن دعمت مجالس الصحـوة. في الوقـت الـذي اسـتطاعت فيـه مجالـس الصحـوة الحدّ مـن نفـوذ تنظيم القاعـدة (ولو لفترة مؤقتـة) في المجتمع السـني العـربي في العـراق، كان تأثيرهـا عـلى قلـب السياسـات ضئيـلاً. لتحـدي الوزن الديموغـرافي للأكثرية الشـيعية في العراق في صناديـق الاقـتراع، دعمـت الريـاض القائمـة العراقية برئاسـة إيـاد عـلاوي، الـذي شـغل منصـب رئيـس الـوزراء في الحكومـة العراقيـة الانتقاليـة في العامـين 2004 و2005. ينتمـي عـلاوي إلى الطائفـة الشـيعية، إلا أنـه أسـس حزبـه كائتـلاف يقوم على أسـاس الوطنيـة العراقيـة ويضـم كل الطوائـف والعرقيـات. في حـين أن حزبـه لم يُبـل بـلاءً حسـناً في انتخابـات العـام 2005، إلا أن الاسـتياء مـن رئيـس الـوزراء نـوري المالـكي فتـح البـاب أمـام عـلاوي للمشـاركة في الانتخابـات النيابيـة للعـام 2010. قـدّم السـعوديون لعـلاوي الدعـم المـادي والإعلامـي من خلال وسـائل الإعـلام التـي تملكهـا المملكـة العربيـة السـعودية.[27] فـازت القائمـة العراقيـة بأغلبيـة المقاعـد، وتفوقـت عـلى ائتلاف دولـة القانـون برئاسـة عـلاوي بمقعديـن، إلا أن المالـكي تمكّـن، بدعـم إيـراني، مـن المحافظـة عـلى تماسـك الأحـزاب الشـيعية وعـلى رئاسـة الـوزراء.[28] وبهـذا بـات الوجـود السـعودي رمزيـاً وانحـصر في أمـور غـير مفيدة كرفض اسـتقبال المالكي في الرياض في زيـارات رسـمية وإرسـال سـفير إلى بغـداد.

صحيـح أنّ فلسـطين لا تمزقهـا الاختلافـات الطائفيـة، إلا أنهـا تشـكّل نموذجـاً آخـراً عـن الدولـة الضعيفـة (أو بالأحـرى شـبه دولـة) يسـهل عـلى اللاعبـين الخارجيـين التدخـل فيهـا. ومـع فـوز حماس في الانتخابات التشريعية الفلسـطينية سـنة 2006، شـهدت السـلطة الفلسـطينية انقسـاماً في القوة بين حركة فتح، المتمثلـة بالرئيـس الفلسـطيني محمـود عبـاس، وحركة حماس. وبحـث الطرفـان عـن دعـم الجهـات الخارجيـة، حيـث رأت

[25] مايكل سلاكمان، "U.S. Ally and Foe are Trying to Avert War in Lebanon"، ذا نيويورك تايمز، 30 يناير 2007.

[26] أنطوني شديد، "Ousted Lebanese Leader Swallows Rivals' Bitter Pill"، ذا نيويورك تايمز، 25 يناير 2011، <http://www.nytimes.com/2011/01/26/world/middleeast/26lebanon.html>.

[27] مايكل غوردون، "Meddling Neighbors Undercut Iraqi Stability"، ذا نيويورك تايمز، 5 ديسمبر 2010، <http://www.nytimes.com/2010/12/06/world/middleeast/06wikileaks-iraq.html>.

[28] نيد باركر، "Dozens of Iraqis pardoned at Sadr movement's behest"، لوس أنجلس تايمز، 27 يوليو 2011، <www.latimes.com/news/na-tionworld/world/la-fg-iraq-pardons-20110727,0,3363151.story>؛ دودج، Iraq: War to Authoritarianism، 186 – 88.

حماس في إيران حليفاً إيديولوجيّاً، لكن ليس طائفيّاً. وفي مسعى لتوحيد الصفوف الفلسطينية وإقفال أي نقطة نفاذ لإيران إلى العالم العربي، جمع العاهل السعودي الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود بين قادة حركتي فتح وحماس في مكة المكرمة في فبراير 2007. إلا أن اتفاقية الوحدة الوطنية التي توسط فيها العاهل السعودي سرعان ما أخفقت. وفي القتال الذي تلى ذلك في يونيو 2007، أحكمت حماس القبضة على قطاع غزة فيما حافظت فتح على سيطرتها على الضفة الغربية.[29] وبما أن الفصيلين الفلسطينيين باتا في مواجهة مفتوحة، تعززت علاقة حماس بإيران مع أن تزايد حدة الطائفية في المنطقة منذ اندلاع الحرب الأهلية في سوريا أثّر على هذه العلاقة. وقدّمت المملكة العربية السعودية الرعاية للسلطة الفلسطينية في الضفة الغربية لتحافظ على دورها في اللعبة السياسية الفلسطينية، لكنها فشلت بقطع الطريق على إيران في قضية العرب والمسلمين المركزية.

يمكن لهذه الإخفاقات في سياسة السعودية الخارجية أن تساعد على تفسير رد الفعل السعودي غير المتناسب والتغطية الإعلامية التي كُرّست لنشوء الحركة الحوثية في شمالي اليمن. والحوثيون هم حركة شيعية زيدية تطورت انطلاقاً من العام 2000 للتأكيد على حقوق الزيديين وسط ما اعتبروه الدور الصاعد للسنة السلفيين في اليمن. وتبنّى الحوثيون جزءًا كبيراً من خطاب النظام الإيراني، بما في ذلك اللهجة الحادة المعادية للولايات المتحدة وإسرائيل، مع أن حجم الدعم الإيراني للحركة يبدو محدوداً جدّاً.[30] وفي نوفمبر 2009، أطلقت الرياض عملية عسكرية كبرى على طول الحدود السعودية-اليمنية لمعاقبة الحوثيين على ما اعتبرته المملكة العربية السعودية أنها تجاوزات على الأراضي السعودية. وحازت هذه الحملة على تغطية موسعة من قبل الإعلام السعودي تتجاوز حجم الإنجازات الفعلية. ويمكن قراءة ادعاء السعودية بـ"الانتصار" على حليف إيراني في اليمن سنة 2009 على أنه محاولة لإقناع الجماهير الإقليمية بأنه بإمكان الرياض أن تحقق هذا الانتصار على طهران في الصراع الإقليمي على النفوذ.[31]

حين انطلق الربيع العربي، كانت إيران في موقع الرابح في حرب الشرق الأوسط الباردة وكانت تنوي تحقيق المزيد من الانتصارات. وساهم السقوط السريع للأنظمة العلمانية (بعض الشيء) الحليفة للولايات المتحدة في تونس ومصر من سلوك المنتصر الذي تعتمده إيران. وأظهرت الحكومة هذه الأحداث كجزء من حركة إسلامية، وليس عربية، بدأت بالثورة الإسلامية في إيران سنة 1979. وفي مطلع العام 2012، دعت إيران عدداً من البعثات العربية (ولم يمكن هناك أي بعثة سورية) إلى مؤتمر للاحتفال بما وصفته بـ "الصحوة الإسلامية".[32] من جهتهم، كان السعوديون على خطوط الدفاع، إذ شكل سقوط نظام مبارك ضربة قوية للسياسة السعودية الإقليمية. ولطالما كانت القاهرة أبرز شريك إقليمي للرياض، وهي أيضاً حليف للولايات المتحدة تتشارك الهواجس السعودية نفسها من مد التأثير الإيراني. أغدق السعوديون على نظرائهم من الملوك بالأموال، وفي حالة البحرين مثلاً، بالجيش للمساعدة على قمع التعبئة الشعبية التي تدعو إلى الإصلاحات السياسية. كما دعمت السعودية التدخل العسكري لحلف شمال الأطلسي (الناتو) ضد القذافي، بيد أن هذه الخطوة كانت تصفية حسابات شخصية بعد عقود من الإهانات عن لسان الزعيم الليبي المتقلب والمساعي لاغتيال الملك عبدالله بتمويل ليبي، أكثر مما كانت استراتيجية إقليمية. وكان السعوديون قادرين على تأكيد دورهم المركزي في السياسة اليمنية حيث توسطوا لاستقالة علي عبدالله صالح من الرئاسة كجزء من خطة مجلس التعاون الخليجي المدعومة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.[33] لكن من جهتهما، كانت البحرين واليمن في حال من الجمود، ولم يؤدي سقوط القذافي إلى تغير في لعبة النفوذ الإقليمية. لم يستطع أي من هذه النجاحات الهامشية التعويض عن خسارة مصر في الاستراتيجية الإقليمية

---

[29] مجموعة الأزمات الدولية، "After Gaza"، تقرير الشرق الأوسط رقم 68، 2 أغسطس 2007، <http://www.crisisgroup.org/~/media/Files/Middle%20East%20North%20Africa/Israel%20Palestine/68_after_gaza.pdf>

[30] مجموعة الأزمات الدولية، "Yemen: Defusing the Saada Timebomb"، تقرير الشرق الأوسط رقم 86، 27 مايو 2007، 2-4. <http://www.crisisgroup.org/en/regions/middle-east-north-africa/iraq-iran-gulf/yemen/086-yemen-defusing-the-saada-time-bomb.aspx>

[31] داود الشريان، "أضعف الإيمان – اليمن في مواجهة إيران"، مأرب برس، 19 أغسطس 2009، <http://marebpress.net/articles.php?lng=arabic&id=5731>؛ ثوم شانكر وروبرت ورث، " Yemen Seizes Sailboat Filled with Weapons, and U.S. Points to Iran"، ذا نيويورك تايمز، 28 يناير 2013، <http://www.nytimes.com/2013/01/29/world/middleeast/29military.html>.

[32] روبرت ورث، "Effort to Rebrand Arab Spring Backfires in Iran" ، ذا نيويورك تايمز، 2 فبراير 2012، <http://www.nytimes.com/2012/02/03/world/middleeast/effort-to-rebrand-arab-spring-backfires-in-iran.html>

[33] مجموعة الأزمات الدولية، "Yemen: Enduring Conflicts, Threatened Transition"، تقرير الشرق الأوسط رقم 125، 3 يوليو 2012، //:http://www.crisisgroup.org/en/regions/middle-east-north-africa/iraq-iran-gulf/yemen/086-yemen-defusing-the-saada-time-bomb.aspx>

السعودية. وعلى العموم، بدا الربيع العربي للسعوديين نكسة أخرى في مساعيهم لمواجهة النفوذ الإيراني في المشرق العربي.

ولهذا السبب بالذات باتت سوريا محورية بالنسبة للمملكة العربية السعودية. فالثورة السورية ضد بشار الأسد كانت الفرصة المثالية الناتجة عن انتفاضات الربيع العربي للرياض لدحر المد الإيراني. وكان السعوديون بطيئين في التفاعل مع الأحداث في سوريا، إذ إن نفورهم الطبيعي من تعبئة الشعب يجعلهم يتوخون الحذر. كما أن سرعة تركيا وقطر في احتضان المعارضة السورية تركت السعوديين في الصف الخلفي مترددين من لعب دور ثانوي، لاسيما بالنسبة لجارتهم الخليجية الطموحة (راجع أدناه). لكن في بداية العام 2012، كانت الرياض منغمسة "كليّاً" في الثورة السورية. فدعمت أولاً المجموعات الأكثر علمانية المتمثلة بالجيش السوري الحر، فيما دعمت تركيا وقطر المجموعات الإسلامية في شمال البلاد. وبعد أن اتضح عجز الجيش السوري الحر عن تحقيق تقدم عسكري وتراجعت تركيا وقطر عن دعمهما الأولي للمعارضة، أعاد السعوديون تركيزهم إلى المجموعات الإسلامية المعارضة، لاسيما السلفية منها، غير جبهة النصرة وداعش المرتبطتين بالقاعدة.[34]

منذ منتصف العام 2014، بقي ما أصبحت الأزمة المتكاملة في سوريا والعراق ساحة المعركة الرئيسية في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. ويبدو أن التأثير الإيراني على لبنان مضموناً، ويبدو أن طهران لديها الكلمة الأخيرة في سوريا والعراق. فبقاء بشار الأسد مضموناً أكثر مما كان منذ سنة. واحتمالات نجاح الهجوم بقيادة داعش خارج المناطق السنية في العراق ضئيلة ومكاسبها قلما تبدو انتصارات بنظر المملكة العربية السعودية. نجح السعوديون بدعم الملوك العرب وصادقوا على دورهم الريادي في اليمن. وستحدد نهاية الأزمة السورية-العراقية بشكل كبير وجهة النظر في الشرق الأوسط لمن "فاز" بهذه الجولة من السباق على النفوذ الإقليمي.

[34] شولوف، وماك أسكيل، ودنسكي "Saudi Arabia plans"؛ خلف "Arms Deliveries Delayed"؛ ورث "Arab Allies Limit Aid"؛ شرلوك وسمعان و مياه "Saudi Arabia backs push"؛ أبو زيد "Shadow War"؛ أنتوس وملاس وكوكر "Veteran Saudi Power Player"؛ عويس "Saudi Arabia Boosts Salafist"؛ صايغ "Unifying Syria's Rebels"؛ جلبرت "Saudi Arabia Walks a Fine Line".

الحرب الباردة السنية-السنية

لا تكون محاور النزاع في الحروب الباردة مجرد ثنائية. فغالباً ما تكون هناك خطوط توتر محاذية بين ما يحسبه البعض حلفاء "طبيعيين". فقد ابتعدت الصين عن الكتلة السوفياتية خلال الحرب الباردة التاريخية بسبب اختلافات جيوسياسية وأيديولوجية. وخلال الحرب الباردة العربية في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، رفض النظام العراقي "التقدمي" المتمثل بعبد الكريم قاسم أن يتبع قيادة عبد الناصر. أما حزب البعث السوري فساهم في تفتيت الجمهورية العربية المتحدة في العام 1961. والأمر سيان بالنسبة للحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. وقد يظن المرء أن الإسلاميين السُنة من مختلف الأطياف قد يتفقون على قضية مشتركة في الاضطرابات الإقليمية التي حصلت في السنوات القليلة الماضية، لكن العكس كان صحيحاً. فالسعوديون والإخوان المسلمون وحلفاؤهم الإقليميون، كحكومة حزب العدالة والتنمية في تركيا، والجهاديون السلفيون في تنظيم القاعدة والخلايا التابعة لها، وحلفاؤهم الأيديولوجيون كداعش والمجموعات السُنية الأخرى كلها سجينة نزاع على الدور المناسب الذي يجب على الإسلام أن يضطلع به في العالم السُني.

من وجهة نظر علمانية، على الإخوان المسلمين والمملكة العربية السعودية أن يكونوا حلفاء مقربين ضد شيعة إيران. لكن في الواقع كان السعوديون أكبر مشجع (وممول) للانقلاب العسكري الذي أسقط الرئيس المصري المنتخب من الإخوان المسلمين. صحيحٌ أن المملكة العربية السعودية وتركيا دعمتا كلتاهما الثورة السورية، إلا أنه لم يكن هناك إثبات على أنهما نسقتا دعمهما. بالتالي، إن القوتين الأساسيتين السُنيتين في حرب الشرق الأوسط الباردة لا يمكن اعتبارهما حلفاء البتة. ففيما دعمت المملكة المجموعات السلفية في سوريا بشكل متزايد مع استمرار الحرب الأهلية، سعت للتمييز بين المجموعات السلفية "الجيدة" عن المجموعات التابعة للقاعدة التي ترى في النظام السعودي أحد أبرز خصومها، وبالطبع أقل ما يمكن قوله هو أن هذه المهمة صعبة.[35] وفي الوقت عينه الذي زادت فيه دعمها للثورة السورية، أعلنت الرياض في بداية 2014 أنه من غير القانوني للسعوديين الانضمام إلى القتال في سوريا أو في أي دولة أخرى، وذلك ردّاً على عدد السعوديين الذين ينضمون إلى المجموعات التابعة للقاعدة في الحرب السورية.[36] وفي مارس 2014، صنفت المملكة العربية السعودية رسميّاً الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة والمجموعات التابعة لها وداعش منظمات إرهابية.[37] ويبدو أنه في هذا النزاع الإقليمي الذي يُفترض أن يكون إقليميّاً، لا يثق السُنة ببعض بقدر ما لا يثقون بالشيعة.

تمحورت الثورات العربية في العام 2011 بشكل رئيسي حول أساس الحكم المشروع في العالم العربي. وفي بعض الحالات مثل سوريا والبحرين تحولت هذه المسألة الأصلية من جراء استراتيجيات النظام والعنف إلى صدام طائفي. لكن في أماكن أخرى من العالم العربي، حيث لم يكن النسيج الاجتماعي ممزقاً بسبب الهويات المتنافسة وحيث لم تنهر الدولة بالكامل، بقي هذا السؤال الدستوري في صميم النزاعات السياسية. ومصر خير مثال على ذلك. فنتائج الانتخابات البرلمانية في العام 2011، حيث حاز حزب الحرية والعدالة للإخوان المسلمين وحزب النور السلفي معاً على 70 بالمئة من المقاعد، وفاز مرشح الإخوان محمد مرسي في الانتخابات الرئاسية في العام 2012 لعام ، متفوقاً على غريمه رئيس الوزراء الأخير في عهد مبارك، بدت وكأنها ترسم مساراً لحكومة إسلامية ديمقراطية. إلا أن نظير الإخوان المسلمين في تونس، حزب النهضة، لم يحقق انتصاراً ساحقاً في انتخابات المجلس الوطني التأسيسي سنة 2011 لكنه برز بتنوع جلي في الأصوات.

[35] "أخبر قائد إحدى الوحدات المتمردة الإسلامية... رويترز إن شخصيات سعودية بارزة تواصلت مع المجموعات السلفية المختلفة في الأسابيع الأخيرة، مقدمةً الدعم مقابل جبهة مشتركة لمنع حلفاء تنظيم القاعدة من توسيع وجودهم في العاصمة". خالد يعقوب عويس "Saudi Arabia Boosts Salafist".

[36] أنغوس ماك دويل ويارا بيومي، "Saudi Arabia to jail citizens who fight abroad" رويترز، 3 فبراير 2014، <http://www.reuters.com/article/2014/02/03/us-saudi-law-idUSBREA1213O20140203>

[37] ديفيد كيركباتريك، "Saudis Put Terrorist Label on Muslim Brotherhood" ذا نيويورك تايمز، 7 مارس 2014، <http://www.nytimes.com/2014/03/08/world/middleeast/saudis-put-terrorist-label-on-muslim-brotherhood.html>.

وكان هذا المزيج من الديمقراطية والسياسات الإسلامية غير مريح بالنسبة للقيادة السعودية. فالثورة في مصر لم تسقط حليف المملكة العربية السعودية الأول فحسب، بل جلبت أيضاً نظاماً قادراً على منافسة دور المملكة كرائد في العالم العربي السني وحتى تقديم بديل في السياسات الإسلامية السُنية عن النظام السعودي الملكي. ولا تقتصر المشاعر المعادية للإخوان المسلمين على الحكومة السعودية، فقد اعتمدت الإمارات العربية المتحدة سلوكاً قاسياً بشكل خاص تجاه الإخوان المسلمين، حيث أنها سجنت أعضاء الجماعة وأقفلت الجمعيات المرتبطة بها.[38] ولزيادة الطين بلة على السعوديين، دعمت جارتهم المشاكسة قطر علناً حكومة الإخوان في مصر وكانت تدعم قضية الإخوان بشكل عام في المنطقة كلها.[39] ولعلّ ما يفرض تحدياً أكبر على السعوديين على الأمد الطويل هو سرعة دخول سلفيي مصر المنافسة الانتخابية حتى أنه من ضمن كتلتهم الأيديولوجية كانت الذرائع المضادة للديمقراطية تواجه التحدي.

”من وجهة نظر سياسة خارجية محضة، كان على السعوديين أن يجدوا أرضية مشتركة مع محمد مرسي.“

من وجهة نظر سياسة خارجية محضة، كان على السعوديين أن يجدوا أرضية مشتركة مع محمد مرسي. ففيما زار مرسي طهران خلال فترة رئاسته، في خطوة أثارت الريب في الرياض، استغل الفرصة لانتقاد السياسة الإيرانية في سوريا، ثم دعا إلى الجهاد ضد حكومة الأسد.[40] مع ذلك لم يثق السعوديون يوماً بحكم الإخوان وتحمّسوا لدعم المشير عبد الفتاح السيسي وانقلابه العسكري في يوليو 2013. فقد سخّرت الرياض وحليفتيها من مجلس التعاون الخليجي، الإمارات والكويت، مليارات الدولارات لمساعدة الحكومة المُشكّلة بعد الانقلاب ودافعت بصعوبة عنها ضد الانتقادات الآتية من الولايات المتحدة وأوروبا.[41]

ويمكن ربط عدم قدرة تركيا والمملكة العربية السعودية على تشكيل محور قوي معارض للأسد في سوريا والتأثير الإيراني على المنطقة عموماً بنزاع إسلامي بين السنة حول النظام السياسي ارتباطاً جزئيّاً. إذ يمثل حزب العدالة والتنمية الذي حكم تركيا منذ العام 2002 الإسلام السياسي المعتدل الانتخابي وهو أقرب ما يكون إلى ما كان يسعى إليه على الأقل بعض عناصر المجموعات العربية التابعة للإخوان المسلمين. ويشكّل تعاطف حكومة حزب العدالة والتنمية حجر عثرة للتنسيق التركي-السعودي حول سوريا بشكل خاص والفعاليات الإقليمية بشكل عام. وتمتد الاختلافات حول الإخوان المسلمين حتى إلى الجبهة الدبلوماسية لحكام الخليج. في مارس 2014، زادت كل من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والبحرين من الضغط على قطر للحد من دعمها للإخوان المسلمين بالتخطيط لسحبٍ منسّقٍ لسفرائها من الدوحة.

حتى ضمن الكتلة السلفية هناك انقسامات عميقة. كما سبق أن ذُكر، قد يمثل "السلفيون الديمقراطيون" في مصر ودول عربية أخرى تحدّياً أيديولوجيّاً جديّاً للنظام الملكي السعودي. وهذا تحدٍّ للمستقبل. أما على الأمد الفوري، فالحكومة السعودية ترى في تنظيم القاعدة والمجموعات التابعة لها تهديداً مدمراً لحكمها المحلي. خاض السعوديون حملة مضادة للتمرد ضد القاعدة في جزيرة العرب التابعة لتنظيم القاعدة في منتصف العقد الأول من العام 2000. ونجحوا في دفع ما تبقى من تنظيم القاعدة في جزيرة العرب إلى اليمن حيث لا تزال تشكل عنصراً من المشهد الفوضوي وتحدياً خامداً للداخل السعودي. ومع أن بضع الأفراد السعوديين انضموا إلى مجموعات تابعة للقاعدة في سوريا، إلا أنه ما من إثبات على أن الحكومة السعودية قد دعمت جبهة النصرة أو داعش، على الرغم من كون نظام الأسد خصماً مشتركاً.

ومع أن حدة النزاع في سوريا والعراق سلّطت الضوء على العنصر الطائفي في صراعات ما بعد الربيع العربي على السلطة، إلا أن النزاعات ضمن العالم السُني نفسه هي على القدر نفسه من الأهمية بالنسبة للمنطقة. تتمسك تونس بإمكانية أن يتوافق الإسلاميون الديمقراطيون في الإخوان

---

[38] عبد الله الرشيد، "The Brothers and the Emirates"، المجلة، 14 فبراير 2014، <http://www.majalla.com/eng/2013/02/article55238281>.

[39] أنطوني شديد، "Qatar Wields an Outsize Influence in Arab Politics"، ذا نيويورك تايمز، 14 نوفمبر 2011، <http://www.nytimes.com/2011/11/15/world/middleeast/qatar-presses-decisive-shift-in-arab-politics.html>؛ سلطان القاسمي "Qatar's Brotherhood Ties Alienate Fellow Gulf States"، المونيتور، 23 يناير 2013 <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/01/qatar-muslim-brother-hood.html>.

[40] "Egypt's Morsi severs ties with Syria, warns of 'counter-revolution violence'"، الأهرام الإلكترونية، 15 يونيو 2013، <http://english.ahram.org.eg/News/74082.aspx>.

[41] محسن خان وريتشارد لو بارون، "What Will the Gulf's $12 Billion Buy Egypt?"، إيجيبت سوريت، المجلس الأطلسي، 11 يوليو 2013، <http://www.atlanticcouncil.org/blogs/egyptsource/what-will-the-gulfs-12-billion-buy-in-egypt>.

المسلمين والقوى السياسية الأكثر مدنية على قواعد اللعبة الديمقراطية، إلا أن التجربة المصرية تشير إلى اتجاه آخر. أما الوضع الفوضوي في ليبيا فيدعو للمراقبة في هذا الصدد. فقد سيطر صعود المجموعات الإسلامية السياسية والسلفية الجهادية على الساحة السياسية الليبية في مرحلة ما بعد القذافي مباشرةً، لكن ظهور اللواء خليفة حفتر في الأشهر الأخيرة، والذي تعهد بتخليص ليبيا من الميليشيات الإسلامية، يهدد هذا التوجه. ويشيد حفتر بالرئيس المصري السيسي فيما يندد بالدور القطري في ليبيا، وكان قد أمر الأتراك بترك البلاد.[42] ومع أنه ما من إثبات ملموس على نوع الدعم الأجنبي الذي يحصل عليه، إلا أنه من المؤكد أنه يغمز من نفس قناة كتلة السعودية والإمارات ومصر. وبالتالي، يبدو أن ليبيا باتت جزءاً من الصراع بين السنة لتحديد ما يعنيه الإسلام للسياسة في الشرق الأوسط.

[42] ماري فيتزجرالد "General Haftar's Anti-Islamist Campaign Divides Libyans"، بي بي سي، 7 يونيو 2014، <http://www.bbc.com/news/world-africa-27715992>؛ "Renegade General Khalifa Haftar Launches Offensive in East Libya" رويترز، 15 يونيو 2014، <http://www.voanews.com/content/reu-renagate-general-launches-offensive-in-east-libya/1937395.html>؛ سامي كوهن "Why is Turkey becoming a target in Libya?"، المونيتور، 26 يونيو 2014 <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/06/turkey-target-libya-expulsion-hifter.html>.

تناقض القوى

مـما لا شـك فيـه أنـه كلـما تراجعـت قـوة الدولـة وسـلطتها تـزداد أهميـة الفاعلـين غير الدوليين في سياسـة البلـد الداخلية. وهـذا هـو بالتأكيـد الحال بالنسـبة للحرب البـاردة الجديدة في الـشرق الأوسـط. ويتصـدر كل مـن جبهـة النـصرة، والحوثيون، والصدريـون، وداعـش، وميليشـيات ليبيـة أخـرى لا يمكـن حصرهـا العناويـن التـي كانـت مخصصـة للحكومـات المحليـة في مـا مـضى. ويسـلّط التقـدم البـارز لداعـش في العـراق في صيـف 2014، عـلى الأقـل مؤقتـاً في رأس الثورة السـنية الأوسـع نطاقـاً ضـد حكومـة المالـكي، الضـوء عـلى مركزيـة اللاعبـين غير الدوليـين. وهـم غالبـاً حلفـاء وعمـلاء الـدول الإقليميـة التـي تلعـب لعبـة الحـرب الباردة الجديـدة، لكن لكل منهـا أجندتها الخاصـة أيضـاً. وتترسـخ هـذه الأجنـدات بعمـق في سـياقاتها المحليـة الخاصـة. إلا أنـه مـن غـير الممكـن التعميـم بشـأن هـؤلاء اللاعبـين، باسـتثناء واقع زيـادة أهميتهم مـع تراجع قوة الدولـة. والتحليـل المفصـل حتـى لأهـم الفاعلـين غـير الدوليين أكـبر مـن نطـاق هـذا العمل.

ويكمـن مفتـاح النجـاح في الحـرب البـاردة الجديـدة في الشرق الأوسـط في أن تتمكـن قـوة إقليميـة مـن دعـم العمـلاء غـير الدوليـين والحلفـاء بفعاليـة في معاركهم السياسـية الداخلية في الـدول الضعيفـة في العـالم العربي. ولا تشـكّل القوة العسـكرية لدولـة مـا عامـلاً مفيـداً بالـضرورة في هـذه اللعبـة. والدليـل الأبـرز عـلى ذلـك هـو أن أكـبر قوتـين عسـكريتين في المنطقـة، إسرائيـل وتركيـا، لم تتمكنـا مـن لعب دور فعال جـدّاً في الحرب البـاردة كـما فعلـت قطـر، الدولـة الأصغر حجـماً إقليميّـاً مـن حيـث القـوة العسـكرية التقليديـة. وتتطلـب الرعايـة الفعالـة للحلفـاء الإقليميـين المـال والسـلاح حتـماً، لكنهـا تتطلـب أيضـاً روابـط أيديولوجيـة وسياسـية تجعـل العمـلاء المحتملـين منفتحـين لعلاقـة مـع الراعـي. وهـذه الروابـط هـي الآن أكـثر أهميـة مـن القـوة العسـكرية التقليديـة في التأثـير عـلى مجرى السياسـات الإقليميـة.

في هـذا السـياق، تعتـبر إسرائيـل حالـةً متطرفـة مـن القـوة العسـكرية الإقليميـة التـي تفتقـر لهـذه الروابـط السياسـية. سـعت إسرائيل للعـب دور في السياسـات الداخلية لدولة عربية ضعيفـة هـي لبنـان في سـبعينيات وثمانينيـات القـرن المـاضي، باسـتخدام قوتهـا العسـكرية الكبـيرة وتحالفهـا مـع القـوات اللبنانيـة لمحاولـة إعـادة صياغـة الدولـة اللبنانيـة سـنة 1982-1984. لكـن هـذه الجهـود باءت بالفشـل، وكان الفشـل مكلفـاً وارتـدّت هـذه المغامـرات الطموحـة جـدّاً عـلى الإسرائيليـين. حتـى جهودهـم المحـدودة أكـثر باسـتخدام تفوقهم العسـكري لوضـع حـد لحـزب اللـه وتحجيمـه سـنة 2006 أدت إلى نتائـج عكسـية. وباسـتثناء الصواريـخ العرضيـة التـي وجهتهـا إسرائيل إلى سـوريا والتـي اسـتهدفت قوافـل متوجهـة إلى لبنـان، بقـي الإسرائيليـون خـارج الـصراع على النفـوذ الإقليمـي في مرحلة ما بعـد الربيـع العـربي. إنهـم يخشـون عواقـب تغيـيرٍ في النظـام، ليـس مـع الأنظمـة التـي كانـوا يرتاحـون في التعامـل معها كما في مـصر فحسـب، بـل أيضـاً حيـث النظـام خصـماً لهـم كـما في سـوريا. وليـس لديهـم أي حلفـاء في الصراعـات الداخليـة عـلى السـلطة. ورغـم تفوقهـم العسـكري التقليـدي، فهـم ليسـوا لاعبـين في الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط. وإنّ أفضـل مـا بوسـعهم هـو حـث الولايـات المتحـدة عـلى اتّخـاذ الموقـف الـذي يفضلونـه (لصالـح الحكومـة الانقلابيـة في مصر مثلاً).

مـن جهتهـا، تشـكل تركيـا حالـةً أكـثر تعقيـداً من حيـث القوة العسـكرية والضعـف السـياسي. فحكومـة حـزب العدالـة والتنميـة لديهـا حلفـاء في نـواحٍ عـدة مـن الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط، وأبرزهـم جماعـات الإخـوان المسـلمين، والمعارضـة الإسـلامية في سـوريا. مـن الواضـح أنـه تركيا أرادت أن تلعب دوراً أكبر في الشرق الأوسـط في السـنوات التـي سـبقت الربيـع العـربي. فظهـرت تركيـا في العقـد الأول مـن الألفيـة الثالثـة كنمـوذج فعّـال للديمقراطيـة والسياسـات الإسـلامية المعتدلـة والنجـاح الاقتصادي في منطقـة تفتقر لهذه العنـاصر الثلاثـة. وسـاهمت سياسـة "تصفـير المشـاكل مـع الجـيران"، التـي اعتمدهـا وزير الخارجيـة أحمـد داوود أوغلو، في تذليـل العقبـات مـع العـالم العربي وإيـران. واكتسـب رئيس الـوزراء رجـب طيـب أردوغـان الكثـير مـن الداعمـين في العـالم العـربي بفضـل انتقـاده العلنـي لإسرائيـل. وبالنسـبة للذين رأوا "القـوة الناعمـة" كوسـيلة جديـدة لزيادة النفوذ الـدولي للبلد، بـدت تركيـا دراسـة حالـة ممتـازة.

بيـد أن الثـورات العربيـة في العـام 2011 قلبـت المقاييـس في الأسـس التـي أرسـتها حكومـة حـزب العدالـة والتنمية للتوسـع

في الشرق الأوسط. وأعربت تركيا في البداية عن اعتراضها على عملية حلف شمال الأطلسي في ليبيا،[43] لكن أردوغان بدّل رأيه بسرعة ليدعم الثورة ضد القذافي. وفي سبتمبر 2011، قام "بجولة المنتصر"، حيث أنه زار مصر وليبيا وتونس للتباهي بالنموذج التركي للتنمية السياسية.[44] ومهّدت الانتصارات الانتخابية للنهضة في تونس والإخوان المسلمين في مصر إمكانية نشوء "كتلة إسلامية ديمقراطية" في الشرق الأوسط يكون لتركيا فيها دوراً ريادياً. وبدت القوة الناعمة منتصرة.

وإن كان هناك من مكان أربك فيه الربيع العربي أوراق السياسة الخارجية التركية فهو سوريا. فقد قامت حكومة حزب العدالة والتنمية بكل ما بوسعها لتحسين العلاقات المتوترة تاريخيّاً مع دمشق. فتخلّت العاصمتان عن الحواجز أمام عبور مواطنيهما الحدود وشجعت على الاستثمارات في الأعمال. وطوّر أردوغان علاقة شخصية مع بشار الأسد حيث التقاه مرات عدة وقد صورت وسائل الإعلام الصداقة بين الزعيمين.

لكن على الرغم من التودّد في العلاقات مع حكومة حزب البعث، سرعان ما عبّرت أنقرة عن تعاطفها مع المحتجين السوريين. كما أن وزير الخارجية داوود أوغلو قام بزيارة دمشق في أغسطس 2011 وحث الأسد علناً على إجراء إصلاحات سياسية. وابتداءً من نوفمبر 2011، بات أردوغان من أوائل القادة في العالم المطالبين بتنحي الأسد وسط الاحتجاجات السورية.[45] وقبل ذلك، كانت أنقرة قد بدأت بدعم خصوم الأسد بالسماح للمجلس الوطني السوري، وهي الهيئة الأصلية المؤلفة من سياسيي المعارضة السورية المنفيين، بالعمل من اسطنبول. واستعان الجيش السوري الحر ومجموعات معارضة مسلحة بالأراضي التركية كقاعدة في ظل وجود لدلائل تزعم بأن الحكومة التركية كانت توفر الدعم للفصائل الإسلامية في المعارضة.[46] أضف إلى ذلك أنّ منذ العام 2014، استقبلت تركيا أكثر من 600 ألف لاجئ سوري.[47]

وبحلول العام 2013، بدأت حماسة تركيا للمشاركة في الحرب الأهلية السورية تخف. وكذلك، تبددت الآمال بأن النظام السوري قد يسقط بسرعة نسبيّاً كما سقطت أنظمة أخرى قبله في العام نفسه. كما أن أزمة اللاجئين كانت تتنامى بشكل لا متناهٍ. والقوة الناشئة بظهور عناصر جهادية أكثر تطرفاً من المعارضة المسلحة باتت تهدد بوصول المجموعات التابعة للقاعدة والعنف الناتج عنها إلى تركيا نفسها. في الوقت نفسه، عادت أنظار حزب العدالة والتنمية لتركّز على المشهد الداخلي إثر الاحتجاجات ضد حكومة أردوغان التي عمّت اسطنبول ومدن أخرى في صيف 2013، والانقسام السياسي بين رئيس الوزراء وجماعة غولن. وبحلول أواخر العام 2013، توفرت مؤشرات عدة إلى تبدّل تركيز أنقرة، بشكل جزئي على الأقل، من إسقاط الأسد إلى الحد من التأثيرات السياسية للحرب الأهلية السورية على تركيا نفسها.[48]

"كان لقطر تأثير كبير على الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط."

ومع أن إردوغان دعا علناً، وفي عدد من المناسبات، لتدخل عسكري دولي في سوريا، إلا أنه لم يكن مستعدّاً لاستخدام جيشه القوي بشكل فردي في النزاع. ومن الواضح أن الرأي العام التركي ضد التدخل العسكري. أما الجيش نفسه، ومع

[44] ستيفن كوك "Erdogan's Middle East Victory Lap"، فورين أفيرز، 15 سبتمبر 2011، <http://www.foreignaffairs.com/articles/68269/steven-a-cook/erdogans-middle-eastern-victory-lap>

[45] سبنيم أرسو، "Turkish Premier Urges Assad to Quit in Syria"، ذا نيويورك تايمز، 22 نوفمبر 2011، <http://www.nytimes.com/2011/11/23/world/middleeast/turkish-leader-says-syrian-president-should-quit.html>

[46] بيرام بالسي، "Turkey's Relations with the Syrian Opposition"، مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي ، 13 أبريل 2012، <http://carnegieendowment.org/2012/04/13/turkey-s-relations-with-syrian-opposition/a88u#>. ريغان دوهيرتي وأمينة بكر، "Exclusive: Secret Turkish nerve center leads aid to Syria rebels" رويترز، 27 يوليو 2012، <http://www.reuters.com/article/2012/07/27/us-syria-crisis-centre-idUSBRE86Q0JM20120727>.

[47] المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، "Syrian regional refugee response"، 19 فبراير 2014، <https://data.unhcr.org/syrian-refugees/country.php?id=224>

[48] تيم أرانغو، "Erdogan, Syrian Rebels Leading Ally, Hesitates"، ذا نيويورك تايمز، 17 أكتوبر 2013، <http://www.nytimes.com/2013/10/18/world/middleeast/erdogan-syria-rebels-leading-ally-hesitates-31-months-in.html>؛ أمبرين زمان "Turkey backing off support for jihadists on Syria border"، المونيتور، 18 نوفمبر 2013، <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/11/turkey-backs-off-support-syria-rebels-border.html>.

أن الحملة السياسية الناجحة لإردوغان ضد دوره السياسي في السنوات التي تلت العام 2000 روّعته، إلا أنه يتردد في دخول الصراع السوري.[49] ومن الصعب عدم الاستنتاج أن جهود تركيا بتوجيه السياسة في سوريا أخفقت. وفي ما يتعلق بالحروب الأهليّة، تعلّمت حكومة حزب العدالة والتنمية درساً قاسياً مفاده أن القوة الناعمة ليست مفيدة جدّاً.

من جهتها، قطر، وهي الدولة الصغيرة من حيث عدد السكان ومن دون قوة عسكرية تُذكر، كان لها تأثير كبير على الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. ويعتمد هذا النفوذ جزئيّاً على ثروة الدوحة الهائلة، لكن هناك عنصران آخران في الاستراتيجية القطرية أعطيا هذه الدولة الصغيرة قوتها الإقليمية. العنصر الأول هو استراتيجية معلوماتية من خلال رعايتها لقناة الجزيرة. فالقيادة القطرية كانت ذكية بما يكفي لتسمح للقناة بمساحة واسعة من الاستقلالية التحريرية من أجل الحصول على المصداقية الضرورية واكتساب جمهور إقليمي.[50] هذا ما فعلته قناة الجزيرة. وحين بدأت الثورات العربية، باتت القناة الوسيلة الأولى لنقل زخم أحداث العام 2011 إلى العالم العربي (وأبعد من ذلك إلى حد ما). ونتيجة لذلك، تمكّن القطريون من التأثير على وجهات النظر الإقليمية والدولية للأحداث مع تغطية شاملة للوضع في مصر، وتصوير متعاطف مع المعارضة في ليبيا وسوريا، وتغطية محدودة جدّاً للانتفاضة في مملكة البحرين، الجارة الخليجية.

أما العنصر الثاني في استراتيجية النفوذ القطري كانت اختيار طرف - مع الإسلاميين السُّنة وبشكل خاص الإخوان المسلمين. ولطالما بثت قناة الجزيرة برنامج "الشريعة والحياة" للمفكر المصري من الإخوان المسلمين يوسف القرضاوي الذي اتخذ من قطر مقرّ إقامة في المنفى. ومع ثورات العام 2011، تدخلت قطر بشكل مباشر أكثر لدعم العناصر الإسلامية في ليبيا وسوريا.[51] وقام الأمير السابق الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني بزيارة رسمية إلى قطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس في أكتوبر 2012، مقدماً مساعدات بقيمة ملايين الدولارات.[52] وشكّلت قطر أكبر مَصدر للمساعدات المالية لحكومة لإخوان المسلمين بعد حكم مبارك في مصر.[53]

وفيما كان الإخوان والمجموعات المماثلة يحرزون التقدم، كانت الاستراتيجية القطرية تتحمل أعباء هذه المكاسب. غير أن المحافظة على هذا الدور البارز في السياسة الإقليمية أمر صعب في بلد صغير كقطر، على الرغم من ثروتها الكبيرة وطموح أميرها السابق. أبعدتا روابط قطر الوثيقة مع الإخوان المسلمين عن المملكة العربية السعودية والشركاء الآخرين في دول مجلس التعاون الخليجي، ما أدى إلى أزمة 2014 المذكورة أعلاه. وأدى دورقطر البارز في ليبيا وسوريا إلى تداعيات داخلية ضدها. كما أن الولايات المتحدة، الضامن الأمني الأكبر لقطر، ضغطت عليها لكبح دعم الإسلاميين السوريين.[54] وبرهن الانقلاب ضد حكومة الإخوان المسلمين في مصر في يوليو 2013 هشاشة المكاسب الجيوسياسية القطرية.

---

[49] درو دسيلفر، "Turkey's leader urges more aid for Syrian rebels, but most Turks say" ، مركز أبحاث بيو، 16 مايو 2013، <http://www.pewresearch.org/fact-tank/2013/05/16/turkeys-leader-urges-more-aid-for-syrian-rebels-but-most-turks-say-no/>؛ سونر كاغابتاي، "Why Turkey Won't Attack Syria"، ذا أتلانتيك، 9 أبريل 2013، <http://www.theatlantic.com/international/archive/2013/04/why-turkey-wont-attack-syria/274806/>.

[50] لا شك في أن المحطة اتُّهمت في تحريف التغطية لخدمة السياسة الخارجية القطرية حتى قبل الربيع العربي. روبرت ف ورث، "Al Jazeera No Longer Nips at Saudis"، ذا نيويورك تايمز، 4 يناير 2008، <http://www.nytimes.com/2008/01/04/world/middleeast/04jazeera.html>.

[51] ديفيد كيركباتريك ورود نورلاند، "Tripoli Divided as Rebels Jostle to Fill Power Vacuum"، ذا نيويورك تايمز، 30 أغسطس 2011، <http://www.nytimes.com/2011/08/31/world/africa/31tripoli.html>؛ كولوم لينش، "Qatar's support for Islamists muddles its reputation asneutral broker in Middle East"، ذا واشنطن بوست، 28 نوفمبر 2012، <http://www.washingtonpost.com/world/national-security/qatars-support-for-islamists-muddles-its-reputation-as-neutral-broker-in-mideast/2012/11/28/a9f8183a-f92e-11e1-8398-0327ab83ab91_story.html>؛ رولا خلف وأبيغيل فيلدينغ سميث، "How Qatar seized control of the Syrian revolution"، ذا فاينانشال تايمز ، 17 مايو 2013، <http://www.ft.com/intl/cms/s/2/f2d9bbc8-bdbc-11e2-890a-00144feab7de.html#axzz2a4v4HArN>.

[52] جودي رودورن، "Qatar's Emir Visits Gaza, Pledging $400 Million to Hamas"، ذا نيويورك تايمز، 23 أكتوبر 2012، <http://www.nytimes.com/2012/10/24/world/middleeast/pledging-400-million-qatari-emir-makes-historic-visit-to-gaza-strip.html>.

[53] ريغان دوهرتي وماغي فليك، "Qatar throws Egypt $3 bln lifeline amid IMF talks"، رويترز، 10 أبريل 2013، < http://uk.reuters.com/article/2013/04/10/uk-egypt-qatar-talks-idUKBRE9390B920130410

[54] أمينة بكر ومريم كروني، "Qatar, allies tighten coordination of arms flows to Syria"، رويترز، 14 مايو 2013، <http://www.reuters.com/article/2013/05/14/us-syria-qatar-support-idUSBRE94D0GT20130514>.

ومـع تنحـي الشـيخ حمـد كأمـير في يونيـو 2013، واسـتلام ابنه الشـيخ تميـم منصـب الأمـير الجديـد وتقاعـد رئيـس الـوزراء ووزيـر الخارجيـة السـابق الشـيخ حمـد بـن جاسـم آل ثـاني، الشريـك الرئيـسي للشـيخ حمـد في طمـوح قطـر بالاسـتراتيجية العالميـة مـن الحيـاة العامـة، بـدا أن قطـر تحـد اسـتراتيجيتها الإقليميـة مـع أنه من الصعـب تحديد السياسـة الخارجية التي سـيعتمدها الأمـير الجديـد.[55] ومـع أن كلفـة الفشـل في الحرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط بـارزة، إلا أن تكاليـف النجـاح لا يسـتهان بهـا أيضـاً.

[55] سيغورد نيوباور، "Qatar's Changing Foreign Policy"، سادا، مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، 8 أبريل 2014، <http://carnegieendowment.org/sada/2014/04/08/qatar-s-changing-foreign-policy/h7gd>

دور الولايات المتحدة

تـكاد تكـون الشـكاوي حـول عـدم تبايـن السياسـة الأمريكيـة الجديـدة في الـشرق الأوسـط بشـيوعها الشـكاوي حـول عـدم حراكهـا.[56] وتحـاول الولايـات المتحـدة الحـد من النفـوذ الإيراني في سـوريا، لكـن تتفـاوض مع الأولى حول السـلاح النووي. وهي تدعـم أيضـاً الحكومـة العراقيـة المتحالفة مع إيـران ضد التمرد السُـني، حيـث يلعـب الإسـلاميون دوراً كبـيراً، لكنهـا تعـارض الحكومـة المتحالفـة مـع إيران في سـوريا وتدعم التمرد السُـني الـذي يلعـب الإسـلاميون فيـه دوراً كبـيراً. وتدعـو الولايـات المتحـدة لسـقوط نظام الأسـد لكـن تتهرب من اسـتخدام القوة ضـده ثـم تصبح بشـكل غير مبـاشر شريكته في اتفـاق لتخليص سـوريا من الأسـلحة الكيميائية. وتطالـب بالديمقراطية في مصر وترفـض تسـمية الانقـلاب العسـكري باسـمه. ويمكـن أن تمتـد هـذه القائمـة إلى مـا لا نهايـة له.

لكـن هـذا التبايـن ليـس مفاجئـاً. فالولايـات المتحـدة لا تنظـر إلى المنطقـة مـن عدسـة الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط. ومـع أنهـا قلقـة بشـأن تـوازن القـوى في المنطقـة، إلا أن مصالحهـا لا ترتبـط بشـكل مبـاشر بـكل تفصيـل في الـصراع عـلى النفـوذ بـين إيـران والمملكـة العربيـة السـعودية. وبتعبير آخـر وأوضـح، ليـس مـن يحكـم سـوريا عـلى القـدر نفسـه من الأهميـة بالنسـبة لواشـنطن كـما هـو مهـم بالنسـبة للريـاض وطهـران. تملـك إدارة أوبامـا مجموعـة من الأهـداف في الشرق الأوسـط تتخطـى حـدود الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط وهـي تبـدو مرتاحـة جـداً لذلـك.

مـما لا شـك فيـه أن الصفقـة النوويـة مـع إيـران هي مـن أبرز أولويـات الإدارة الأمريكيـة. ولـن تسـمح للسـلوك الإيـراني في سـوريا ولبنـان والعـراق أن يقـف بوجـه ضـمان هـذه الصفقة، هـذا إذا توصلـت عمليـة تفـاوض مجموعـة P5+1 إلى صفقـة. لكـن هـذا لا يعنـي، كـما يظـن البعـض في المملكـة العربيـة السـعودية ودول الخليـج، أن واشـنطن مسـتعدة للتسـليم بالـشرق الأوسـط كمنطقـة نفـوذ إيـراني مـن أجـل الحصـول عـلى الصفقـة.[57] ومـن الصعـب عـلى المـرء أن يتخيـل الولايـات المتحـدة المقربـة جـدّاً مـن إسرائيـل توافـق عـلى دور مسـيطر لإيـران في المنطقـة. لكـن العكـس هـو صحيـح، إذ تـرى الإدارة الأمريكيـة الصفقـة النوويـة جـزءاً مـن اسـتراتيجية طويلـة الأمـد للحـد مـن النفـوذ الإقليمـي الإيـراني لإعـادة دمـج إيران معتدلـة في الاقتصـاد السـياسي العالمـي. وقـد اتخـذت خطوات عـدة مـن بينهـا زيـارة الرئيـس الأمريـكي إلى الريـاض في مـارس 2014 لطمأنـة السـعوديين إلى أن الصفقـة النوويـة مـع طهران لا تعنـي "مسـاومة كـبرى" تؤكـد سـيطرة إيـران عـلى المنطقة. وتتابـع واشـنطن المفاوضـات مـع إيران حـول المسـائل النووية فيـما تضغـط عـلى العـراق لتجنـب المزيـد مـن الاندمـاج في حلقـة النفـوذ الإيـران فيـما تدعـم (بعـض الـشيء) المعارضـة السـورية وتسـلح دول الخليـج.[58] ومـع أن التفـاوض مـع إيـران حـول المسـائل النوويـة ومعارضـة نفوذهـا الإقليمـي قـد يبدو "متناقضـاً" للبعـض، إلا أنـه يعكـس بكل بسـاطة رؤيـة الإدارة الأمريكيـة الطويلـة الأمـد لمصالحهـا في المنطقـة.

[56] راجع مثلاً دويل مكمانوس، "On foreign policy, a consistently inconsistent president"، لوس أنجلوس تايمز، 18 سبتمبر 2013، <http://articles.latimes.com/2013/sep/18/opinion/la-oe-mcmanus-column-obama-foreign-policy-20130918>.

[57] كان هناك تدفق مستقر من التعليقات من مسؤولين ومحللين سعوديين حول موضوع الولايات المتحدة وكونها لا تتمتع بالمصداقية كحليف. عبد العزيز صقر، "Wither GCC-US Relations?"، Arab News ، 29 مارس 2013، <http://www.arabnews.com/news/446395> ؛ عبد الله السماري، "ما هو البديل عن واشنطن؟"، جريدة اليوم، 16 سبتمبر 2013، <http://www.alyaum.com/News/art/95080.html>؛ ماثيو كامينسكي، "Prince Alwaleed bin Talal: An Ally Frets About American Retreat"، ذا وول ستريت جورنال، 22 نوفمبر 2013، <http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424052702304337404579211742820387758>. ويعتبر البعض أن الولايات المتحدة توصلت إلى صفقة مع إيران كجزء من رغبتها بوضع مسافة بينها وبين المنطقة. أنغوس ماك دويل، "Insight: Saudis brace for 'nightmare' of U.S.-Iran rapprochement"، رويترز، 9 أكتوبر 2013، <http://www.reuters.com/article/2013/10/09/us-saudi-usa-iran-insight-idUSBRE-9980IT20131009>؛ خالد الدخيل، "ماذا بعد رفض السعودية عضوية مجلس الأمن؟"، جريدة الحياة، 19 أكتوبر 2013، <http://alhayat.com/OpinionsDetails/563309>.

[58] "US presses Iraq on report of Iran arms deal"، بي بي سي الإخبارية، 25 فبراير 2014.

كذلـك، تعتـبر الإدارة الأمريكيـة أي تمـرد للقاعـدة والمجموعات التابعـة لهـا في المنطقة تهديداً جديّاً لأسـباب مفهومة. وتشـكّل سياسـة الطائـرات بـدون طيـار الخاصة بها في اليمن وباكسـتان إثباتـاً وافيـاً عـلى مـدى اعتبـار الولايـات المتحـدة لهـا تهديـداً. وتبـيّن مـن جـراء دعمهـا الفـوري لحكومـة المالـكي في العـراق بوجـه المكاسـب التـي حققتها داعـش في يونيـو 2014 الأهمية التـي يحظـى بهـا التهديد الجهـادي السـلفي من بـين أولوياتها الاقليميـة. وبالتـالي، ليـس مـن المفاجـئ أن تكـون الإدارة الأمريكيـة أكـثر حذراً من المملكـة العربية السـعودية بالتعامل مـع المعارضـة السـورية التي تلعب فيهـا جبهة النـصرة التابعة للقاعـدة، وداعـش، التـي لم يعـترف بهـا تنظيـم القاعـدة حتى، ومجموعـات سـلفية أخـرى مقرّبـة مـن القاعـدة، دوراً مهـمّاً. وبـكل بسـاطة، المملكـة العربيـة السـعودية ترتـاح أكـثر مـن الولايـات المتحـدة للمقاتلين السـنة الملتحين مع أنهـا تدرك أكثر فأكـثر الآن النتائـج السياسـية الخطرة للقتال في العراق وسـوريا عـلى أمنهـا الداخلي.

وكـما تكـرّر واشـنطن دائمـاً، فهـي تـود أن تـرى الأسـد خـارج السـلطة لكنهـا غـير مسـتعدة للمخاطـرة بمصالحها بمنـع تمـرد القاعـدة في المنطقـة لتحقيـق هـذا الهـدف. كذلـك تـودّ رؤيـة النفـوذ الإيـراني في المنطقـة ينحـسر ولكـن ليـس عـلى حسـاب دور متنـامٍ للجهاديـين السـنة، كداعـش. ومـا يعتـبره البعـض تناقضـاً هـو في الواقـع بالنسـبة لإدارة أوبامـا مجـرد تـوازن للمصالـح الإقليميـة. ولا يشـمل تحقيـق التـوازن المصالـح الإقليمية الأمريكية فحسـب، بل أيضاً مصالح الإدارة السياسـية الأوسـع نطاقـاً والمتمثلـة بتجنـب تـورط الولايـات المتحـدة في حـرب أخـرى في الـشرق الأوسـط. ويُضـاف كل ذلك إلى سياسـة خارجيـة "متناقضـة" حيـال الحـرب الباردة الجديـدة في الشرق الأوسـط، لكـن هذا التناقض يسـتند إلى قـراءة الإدارة الأمريكية لمصالـح البـلاد المُعقـدة في المنطقـة.

إن التحـدي الطويـل الأمـد في الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط صعـب وبسـيط في آن واحـد: وهـو بنـاء دول تسـتطيع أن تحكـم مجتمعاتهـا بفعاليـة. فالحكـم الفعّـال في العـراق ولبنـان واليمـن وليبيـا يحـد بشـكل بـارز مـن تدخـل القـوى الإقليميـة عـبر الحـدود، وبالتـالي يحـد مـن نطـاق صراعـات تـوازن القـوى الإقليمية. أمـا الفاعلين غـير الحكوميين في الـدول ذات الحكـم الفعّـال، فسـتكون لهـم أسـباب أقـل للسـعي وراء رعـاة أجانـب، وإذا فعلـوا ذلـك، تمنعهـم الدولـة الفعّالـة مـن إقامـة هـذه الروابـط. وبالتـالي، لا تصبـح الـدول المحكومـة مـلاذاً للإرهابيـين العابريـن للحـدود، كالقاعـدة والمجموعـات التابعـة لهـا. بيـد أن بنـاء حكم فعـال ديمقراطي يحـترم الحقـوق الإنسـانية والمدنيـة للمواطنـين مهمـة أصعب. ويعتـبر هـذا النـوع مـن الحكـم أكـثر اسـتقراراً وفعاليـة عـلى المـدى البعيـد مـن دون شـك، لكـن مـا مـن إجماع عـلى كيفية وصـول أي دولـة إلى تلـك المرحلـة الجيـدة من الحكم المسـتقر المناسـب. والطريـق إلى تلك المرحلة ليسـت وعرة فحسـب، بل وغـير واضحـة.

وقـد أظهـرت الولايـات المتحدة في العـراق أنها أفضـل في تدمير الدولـة مـن بنائهـا. فمـع مـوارد محـدودة وإرادة سياسـية محـدودة أكـثر، لم تلعـب واشـنطن دوراً بـارزاً في إعـادة إعـمار سـلطة سياسـية فعّالـة في الـدول العربيـة. وهـذا ليـس بالأمـر السـيء، فالولايـات المتحـدة لا تملـك خريطـة لهـذه الطريـق الوعـرة وغـير الواضحـة أفضـل مـن أي جهـة أخـرى. ومـع هذا التواضـع المناسـب، يمكـن لواشـنطن أن تحافـظ عـلى مصالحها باتبـاع قواعـد بسـيطة إلى حـدّ مـا:

1) التذكـر أن الحـرب البـاردة الجديـدة في الـشرق الأوسـط ليسـت حـرب الولايـات المتحـدة. صحيـح أن الولايـات المتحدة لديهـا مصالـح جوهريـة تقـضي بحمايـة الـشرق الأوسـط، إلا أن الحـرب البـاردة الجديـدة لم تهـدد هـذه المصالـح مبـاشرةً بعـد. فالنفـط لا يـزال يتدفـق مـن منطقـة الخليـج. ومـع أن مسـألة اللاجئين السـوريين صعبـة على حلفاء الولايـات المتحدة في تركيـا والأردن، إلا أنهـا لم تزعـزع اسـتقرارهما، حتـى وإن شـجعت عـلى تنامـي العنـف في العـراق. أمـا إسرائيـل، فهـي حتـماً متأثـرةٌ بالأحـداث في سـوريا ولبنـان لكنهـا لا تواجـه تهديـداً مبـاشراً من جرائها. لا شـك في أن القاعـدة والمجموعات التابعـة لها وشركائهـا الأيديولوجيين، كداعش، اسـتفادوا جميعاً مـن الفـوضى في سـوريا والعـراق وليبيـا واليمـن، إلا أن هـذه المكاسـب محـدودة والجماعـات التابعـة للقاعـدة منهمكـة بالنزاعـات المحليـة حتـى هـذه اللحظة. ممـا لا شـكّ فيـه أنّ إنهـاء الـصراع في سـوريا سـتنتج عنه أمور حسـنة كتراجـع تهديد عدم الاسـتقرار السـياسي في لبنـان، لكـن اسـتقرار هـذا البلـد ليـس سـبباً كافياً لتبريـر دوراً عسـكرياً أكبر للولايـات المتحـدة في سـوريا. فهـذا أمـر غـير مهـم للمصالـح الأمريكيـة.

"وقد أظهرت الولايات المتحدة في العراق أنها أفضل في تدمير الدولة من بنائها."

يُعتـبر الشرق الأوسـط منطقـة متعددة الأقطـاب مع عدد من القـوى الإقليميـة الهامة الفاعلة في السياسـية: إيـران والمملكة العربيـة السـعودية وتركيا وإسرائيـل ومـصر. وإذا بـرز أحـد هـذه القـوى كقوة مسـيطرة، سـتعمل القوى الأخـرى بطبيعة

الحال لموازنة هذه القوة والحد من نموها.[59] هذا ما حصل مع جمال عبد الناصر في ستينيات القرن الماضي، وما حصل في إيران ما بعد الثورة في الثمانينيات من القرن الماضي. وفي كلتا الحالتين، ساعدت الولايات المتحدة الدول التي كانت تحاول تحقيق التوازن بوجه الهيمنة الإقليمية المحتملة كما حافظت على مسافة في الوقت نفسه. ويمكن لواشنطن أن تتجنب المشاركة العسكرية المباشرة في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط من خلال اتباع الاستراتيجية نفسها والاعتماد على توازن القوى في المنطقة للتصدي للهيمنة الإيرانية. وليس من المحتمل أن يحوّل الإيرانيون الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط إلى حرب ساخنة باستخدام قوتهم العسكري لمحاولة تغيير الخريطة الإقليمية كما فعل صدام حسين في غزوه للكويت سنة 1990. وحتى لو فعلوا ذلك، سترحب قوى إقليمية أخرى بالفكرة وتتعاون مع هذا التدخل الأمريكي لإعادة التوازن. وتتضاعف ديناميكيات التوازن هذه للفاعلين غير الحكوميين، كداعش التي ليس لها أي أصدقاء في المنطقة أبداً. وطالما تستطيع داعش أن تجمع المكاسب في العراق، وهو أمر غير مضمون، لن ترى إيران تعمل ضد ذلك فحسب، بل والمملكة العربية السعودية وتركيا أيضاً.

2) النظام أفضل من الفوضى، لذا يجب دعم الدول التي استمرت بتوفير حوكمة فعّالة حتى لو لم تحقق تلك الحوكمة المستويات المرغوبة من الديمقراطية وحقوق الإنسان. وهذا يعني أموراً كثيرة تتعارض مع نقاط التشاور التي يمكن سماعها بشكل متكرر في واشنطن:

- يعني استكشاف كل مجال لعلاقة جديدة مع حكومة روحاني في إيران على الرغم من معارضة الولايات المتحدة السياسة لإيران في نواحٍ عدة في الشرق الأوسط. وهذه مهمة صعبة وعسيرة، لأن روحاني لا يتحكم بكافة موازين القوى في طهران. ولن يتمكن من القيام بكل شيء تتمناه الولايات المتحدة. وسيتطلب ذلك صبراً من جانب واشنطن والاستعداد للنكسات. إلا أن نجاح روحاني وحلفائه ضد الأخصام المحليين هو أفضل أمل طويل الأمد لعلاقة أمريكية-إيرانية طبيعية، ودور إيراني إقليمي غير مسبب للاضطراب. وقدرة الولايات المتحدة بالتأثير على مجرى الصراعات المحلية السياسية في إيران محدود جدّاً حتماً. مع ذلك، لا شك في أن التوصل لاتفاق مقبول مباشرةً حول المسألة النووية يرضي هدف مجموعة ٥+١ بإبعاد إيران عن الإمكانيات النووية والسماح لروحاني بتحقيق انتصار من خلال التخفيف من العقوبات وإعادة دمج إيران في الاقتصاد العالمي سيعززان مكانته في السياسة الإيرانية الداخلية.

- بات النظام والفوضى الآن في توازن دقيق في العراق بسبب المكاسب التي حققتها داعش والثورة السنية الأوسع لكن المشرذمة. سيكون من المثالي إذا تمكنت واشنطن من الحد من تهديد الثورة ودفع رئيس الوزراء المالكي لتوسيع حكومته وتغيير أسلوبه الأوتوقراطي، وضم قادة عرب من السُنة يتمتعون بمصداقية وإعطائهم الموارد لمكافحة الجهادية السلفية والمتبقين من حكومة صدام حسين في أراضيهم. إلا أن هذه النتيجة المثالية غير محتملة بسبب الثغرات الواضحة التي يعاني منها المالكي ودور إيران في السياسة العراقية والافتقار للقيادات في الطبقة السياسية العراقية بشكل عام. أما المهمة الفورية، فهي التأكد من أن داعش هُزمت في أرض المعركة. فعندما يبدأ زخمها بالتراجع، سيبدأ حلفاؤها في المجتمع السُني بوضع مسافة بينهم وبينها. في هذه المرحلة، وليس قبل ذلك، يكون من المنطقي للولايات المتحدة استخدام القوة التي لا تزال تملكها في العراق للضغط من أجل حكومة شاملة أكثر. في هذا الوقت، على واشنطن الالتزام مع كافة القوى الإقليمية، بما في ذلك إيران، من أجل ضغط منسق على كافة الأطراف العراقية لتشكيل حكومة شاملة أكثر وفعالة بعد درء تهديد داعش. ويجب أن تكون الرسالة من الولايات المتحدة واللاعبين الإقليميين المعنيين للعرب السُنة في العراق "كل الأمور ممكنة إذا هُزمت داعش، وطالما داعش تصعد فلا شيء ممكن".

- لا تواجه مصر المشاكل الصعبة التي يواجهها العراق، لكنها غير ذاهبة في الاتجاه الصحيح. مع ذلك، على الولايات المتحدة أن تستمر بالتزامها مع

[59] كارل براون، "International Politics of the Middle East: Old Rules, Dangerous Game"، (برينستون، مطبعة جامعة برينستون، 1984)؛ ستيفن والت، "The Origins of Alliances"، (إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل، 1987).

الحكومة العسكرية في مصر، فيما ترفض الجهود الظاهرة للرئيس عبد الفتاح السيسي بتغذية المشاعر المعادية للأمريكيين في مصر لتعزيز مكانته المحلية. وعلى الولايات المتحدة أن تتعامل معه بشكل مباشر إذا قام بالأمر نفسه وإذا استمر باتباع سياسة خارجية تحافظ على التعاون مع الولايات المتحدة والسلام مع إسرائيل. يمكن لواشنطن أن تعبّر عن تفضيلها لديمقراطية أكبر وإصلاحات ليبرالية في مصر، لكن عليها التعامل مع الحكومة المصرية كما هي.

إنّ تفضيل النظام على الفوضى يعني أيضاً الاستمرار بسياسات غير إشكالية في واشنطن، لكن من المهم إدراك أن:

- الأردن هو جزيرة من الاستقرار والحوكمة الجيدة في المشرق العربي، حتى وإن أخفق في تحقيق معايير الديمقراطية المأمولة. فهو يرزح تحت ضغط كبير بسبب أزمة اللاجئين السوريين. يستحق الأردن كل الدعم الذي يمكن للولايات المتحدة أن تقدمه.

- على الرغم من توتر العلاقات الأمريكية-السعودية حول مجموعة من المسائل الإقليمية، إلا أن علاقتهما تعتبر عنصراً للاستقرار الإقليمي وتستحق أن تُدعم حتى لو كانت طمأنة الرياض صعبة أحياناً. فحين يكون للدولتين مفهومٌ مشتركٌ لمصالحهما، تكون مكاسب التعاون كبيرة. وحين لا تتفقان، كما هو حال مسألة التعامل مع إيران، لا يجب على الولايات المتحدة أن تقلق كثيراً حيال الشكاوي السعودية، فالمملكة تحتاج هذا الرابط الأمني الأمريكي، لاسيما مع استمرار انعدام الاستقرار في المنطقة.

- ما من ضغط محدد، في واشنطن أو دول الخليج، للحد من الدور الأمريكي فيها. فنظراً للاضطرابات الإقليمية والمخاوف المبالغ فيها لدى بعض الدول الخليجية من تخلي الولايات المتحدة عنها، هناك أسباب كافية للمحافظة على الهيكلية الأمريكية العسكرية نفسها في الكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة وعُمان.

- أما البحرين، فهي الحالة الأصعب من بين دول الخليج حيث تملك الولايات المتحدة مرافق عسكرية، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية المستمرة في الجزيرة، لكن ما من مُحفزات قريبة الأمد لانسحاب عسكري من البحرين في الوقت الراهن، بل من الأفضل المحافظة على الالتزام وتشجيع العناصر في العائلة الحاكمة التي تعمل من أجل نوع من المصالحة السياسية، وإن كانت المصالحة الكاملة قد تتطلب تحسناً في العلاقات السعودية-الإيرانية.

- ليس هناك الكثير مما يمكن أن تقوم به الولايات المتحدة للتأثير بفعالية على الأزمة السياسية في تركيا، غير المحافظة على علاقات ثنائية جيدة ذات جدوى جغرافية واقتصادية.

3) قد يعزّز تحسّن العلاقات السعودية-الأمريكية إلى حد بعيد فرص التسويات السياسية في سوريا والعراق ولبنان والبحرين ويحد من الطائفية المستشرية والتي تسيطر على السياسة الآن. ولا شك في أن هذا التحسن من مصلحة الأمريكيين. وعلى الرغم من التشنج بين البلدين، ليس من المستحيل تخيّل وضع يرى فيه الطرفان أنه من مصلحتهما العمل من أجل علاقات طبيعية. لا شك في أنه ثمة عواقب جدية لهذا التقارب، لكن تملك الرياض وطهران علاقة مدنية أكثر وأقل مشاكسة حتى مؤخراً منذ منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.[60] لكن، ستكون هناك نتائج عكسية بالنسبة للولايات المتحدة لدفع السعوديين نحو إيران. وهناك أصلاً شكوك كبيرة لدى الرياض بأن الولايات المتحدة توصلت إلى صفقة جيوسياسية مع إيران، وتُعتبر الجهود الأمريكية بتشجيع السعوديين على التوصل لاتفاق مع إيران جزءاً من هذه الصفقة، وهي من دون أي شكّ تواجه مقاومةً. يُستحسن ترك السعوديين يقررون بأنفسهم متى وكيف يحاولون معالجة اختلافاتهم مع إيران. إذ لديهم محفزات كافية للقيام بذلك إذا كان الإيرانيون ينوون الاستجابة.

4) إنّ المبادرات المتعددة الأطراف، إذا كانت ممكنة، هي أكثر فعالية من المبادرات الأحادية الطرف. بات عبء العقوبات على إيران أثقل حين انضمت دول أخرى غير الولايات المتحدة وباتت المفاوضات مع إيران تحتاج لتغطية مجموعة P5+1 لتحظى بأي زخم. وأدى هذا الزخم إلى

[60] غريغوري غوس، "Saudi-Iranian Rapprochement? The Incentives and the Obstacles" في "Visions of Gulf Security"، مشروع حول العلوم السياسية في الشرق الأوسط، 17 مارس 2014، <http://pomeps.org/2014/03/17/visions-of-gulf-security-memos/>.

اتصالات تجريبية ثنائية بين طهران وواشنطن، لكن من الصعب تخيّل كيف كان سيتم ذلك من دون مبادرات متعددة الأطراف. وستكون هذه الأخيرة أكثر فعالية بتحجيم داعش في العراق. إن أي مسعى دبلوماسي للحد من العنف في سوريا يجب أيضاً أن يكون متعدد الطراف، وإن كانت هذه العملية صعبة. ومع أنه لم تُحرز محادثات جنيف أي تقدم على المستوى السياسي، من المفيد أن تكون العملية موجودة في حال حصل تغيير في علاقات القوة، إما على الأرض في سوريا أو في سلوك روسيا حيال الصراع. إذا نجحت المفاوضات النووية مع إيران، سيكون من المنطقي التفكير بضم إيران إلى إطار عمل جنيف، إذا كانت طهران مستعدة لجعل عميلها حزب الله يحد من مشاركته في الصراع.

كذلك، ستكون المقاربات المتعددة الأطراف مع الاتحاد الأوروبي أكثر فعالية في تعزيز قصص النجاح (النسبي) في شمال أفريقيا، كالمغرب، ودعم عملية الانتقال المهمة لكن الهشة في تونس مع دفع الجزائر نحو نظام سياسي شامل أكثر ويساعد قدر المستطاع على بناء مؤسسات الدولة في ليبيا. وبالنسبة لكافة الدول في شمال أفريقيا، تُعتبر العلاقات الاقتصادية مع أوروبا أهم بكثير من العلاقات مع الولايات المتحدة. وسيكون أي التزام بموارد دبلوماسية أو مالية أكثر فعالية إذا أُضيف إلى الشركاء الأوروبيين الذين يملكون مصالح في شمال أفريقيا أكبر من المصالح الأمريكية.

لا شك في أن هذه السياسات مجتمعة "متناقضة" حين يُنظر إليها من خلال عدسة الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط. في بعض الحالات، هي تدعم الجانب "الموالي لإيران"، وفي حالات أخرى الجانب "الموالي للسعودية". لا يجب على الولايات المتحدة أن تحدد مصالحها في هذا الإطار. عليها أن تركّز على مصالحها الأساسية بضمان إنتاج النفط وتدفقه ومكافحة المجموعات الإرهابية التي تستهدف الولايات المتحدة وحلفاءها وتجنب تأثير العنف الإقليمي في سياسات الحلفاء الأمريكيين المستقرين. يشكّل تركيز السياسة الأمريكية على الدول التي تحكم فعليّاً، و تعمل بشكل متعدد الأطراف من أجل الضغط على الخصوم ودعم الأصدقاء في آن واحد، مع الأخذ بالحسبان بأن المصالح الأمريكية غير مرتبطة بشكل مباشر في الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط كمصالح الأطراف المحلية، منفذاً من هذه المرحلة المحفوفة بالصعوبات والعنف.

عن المؤلف

غريغوري غوس، هو زميل أول غير مقيم في مركز بروكنجز الدوحة. سيشغل غوس في أغسطس 4102 منصب أستاذ كرسي في العلاقات الدولية بكلية بوش للخدمات الحكومية بجامعة تكساس أي أند إم. ألّف ثلاثة كتب ونشر العديد من المقالات حول سياسات الشرق الأوسط، مع التركيز بشكل خاص على شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج.

نبذة عن مركز بروكنجز الدوحة

تمّ إنشاء مركز بروكنجز الدوحة من خلال مبادرة من معهد بروكنجز في واشنطن. يأخذ المركز من الدوحة مقرّاً له ويقوم بتحليلات سياسية وبحوث مستقلّة عالية الجودة عن منطقة الشرق الأوسط. يحافظ المركز على سمعةٍ اكتسبها من خلال التأثير السياسي والبحوث الميدانية المتطورة التي تركّز على القضايا الاجتماعية، والاقتصادية، والجيوسياسية في منطقة الشرق الأوسط الكبير بما في ذلك العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

يرأس مجلس المستشارين الدولي لمركز بروكنجز الدوحة معالي الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني، رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية السابق والرئيس المشارك ستروب تالبوت. تمّ افتتاح المركز رسمياً من قبل معالي الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني في 17 فبراير 2008. تقوم دولة قطر بتمويل هذا المركز الذي يديره سلمان شيخ.

ولتحقيق رسالته، يقوم مركز بروكنجز الدوحة بالأبحاث والبرامج التي تشمل مشاركة شخصيات بارزة من الحكومات والمجتمع المدني وعالم الأعمال ووسائل الإعلام والأكاديميين على حدّ سواء، في قضايا السياسات العامة الهامة المتعلقة بالمجالات المحورية الأربعة التالية:

- الدمقرطة والإصلاح السياسي والسياسات العامة.
- العلاقات بين منطقة الشرق الأوسط والدول الآسيوية الناشئة، بما في ذلك الشؤون الجيوسياسية واقتصاد الطاقة.
- حل النزاعات وبناء السلام في مرحلة ما بعد الصراع.
- الإصلاح التعليمي والمؤسسي والسياسي في دول مجلس التعاون الخليجي.

يعتبر مركز بروكنجز الدوحة منبر أبحاث معهد بروكنجز في المنطقة بسبب انفتاحه على وجهات النظر كافة.

منشورات مركز بروكنجز الدوحة

2014

ما وراء الطائفية: الحرب الباردة الجديدة في الشرق الأوسط
دراسة تحليلية، غريغوري غوس

الأزمة المستمرة: تحليل المشهد العسكري في سوريا
موجز السياسة، تشارلز ليستر

أي أسلوب اعتمدته النهضة أثناء عملية صياغة الدستور التونسي: الإقناع، الإكراه، أو تقديم التنازلات؟
دراسة تحليلية، مونيكا ماركس

2013

إعادة إعمار ليبيا: تحقيق الاستقرار من خلال المصالحة الوطنية
دراسة تحليلية، إبراهيم شرقية

ملوكٌ لجميع الفصول: كيف اجتازت الأنظمة الملكية في الشرق الأوسط عاصفة الربيع العربي
دراسة تحليلية، غريغوري غوس

انقلاب اللاعودة: الولايات المتحدة أمام إعادة ترتيب أولوياتها في مصر
موجز السياسة، شادي حميد وبيتر ماندافيل

موجز سياسات منتدى مركز بروكنجز الدوحة للطاقة 2013
تقرير مركز بروكنجز الدوحة - مبادرة أمن الطاقة مركز بروكنجز

تحديات الوحدة السورية: طمأنة مختلف أطياف المجتمع السوري وتأطير التوافق الوطني
سلسلة ورش عمل حول سوريا

سياسة ذات مرجعية دينية بدون دولة إسلامية: هل يمكن أن يكون حزب العدالة والتنمية التركي نموذجاً للإسلاميين العرب؟
موجز السياسة، أحمد ت. كورو

السلام الدائم: رحلة اليمن الطويلة للمصالحة الوطنية
دراسة تحليلية، ابراهيم شرقية

نحو شراكة إستراتيجية؟ الاتحاد الأوروبي ومجلس التعاون الخليجي في شرق أوسط ثائر
موجز ورشة عمل